كذبت عليك .. فصدقني

رواية

أحمد فريد

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــــــاب : كذبت عليك .. فصدقنى

تأليـــــــف : أحمـــــد فريـــــــد

رقــم الإيــداع : ٢٠٠٢/١٦٨٨٠

التــرقيم الدولى : ISBN

977-303-447-X

تـاريخ النشـــر : ٢٠٠٣

الناشــــــر : دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة :

٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

٦٣٦٢٥٦٢ - فاكس/ ٦٣٧٤٠٣٨

المكتبـــة :

١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

٥٩١٧٥٣٢ / ١٢٢ (الفجالة)

المطابـــع :

مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)

٠١٥/٣٦٢٧٢٧

www. alinkya.com/kebaa

e-mail: qabaa@naseej.com

kebaa@ajeeb.com

بسم الله الرحمن الرحيم



إهــداء . .

يا مــن أحببـــت . . .

بمــاذا يفيــد طــوق النجــاة ، وقــد فقــدت يـــداى ! !

أحمد فريد

١

الارض ملتهبة تكاد تشتعل من شدة الحرارة.. وكأن الشمس قد اقتربت فجأة وهى تمد أشعتها الاخطبوتية لتمتص الأكسجين من الهواء.

وقفت منال أسفل مظلة القماش الخاصة بمحل الملابس الفاخرة ليس هربا من القيظ ولكن انبهاراً بالمانيكانات المعروضة داخل الفاترينة، بعضها مرتديا أحدث فساتين الموضة والبعض الآخر عاريا منها، فى انتظار ترتيبات العاملين بالمحل، حيث وقف شاب خلف زجاج الفاترينة ينمق الباروكة فوق رأس المانيكانات الخشبية، بينما انهمكت فتاة أخرى فى تنسيق الفساتين على العارضات أوالدمى الصامتة.

ومنال تتابع الموقف فى حالة أقرب إلى الذهول.. تارة تتأمل قوام التمثال الخشبى الممشوق، فتسحب يدها إلى خصرها دون شعور، وتتحسسه وكأنها تقارن بين قوامها وقوام التمثال، وتارة أخرى تتململ فى وقفتها وكأنها تشعر بملمس قماش الفساتين المعروضة.

لم تشعر كم من الوقت مضى، كما أنها لم تلاحظ مداعبة العاملين لها من وراء الزجاج وهما يتابعانها بإشارات مازحة لشدة انبهارها.. وكأنها فى حلم أومسحورة.

هى أيضا كانت ملفتة للنظر بالنسبة لهما..فهى ليست محجبة ولا أيضا منقبة ولكنها كانت أقرب إلى الملثمة، حيث غطت رأسها وأخفت وجهها بإيشارب كبير، يكاد لا يظهر منها سوى عين واحدة، بلون البرسيم وجزء من جبهتها الشديدة البياض. فستانها فى شكل الجلباب الطويل يوحى ببخث ثمنه. وقد استقرت ضفيرة صفراء طويلة فوق ظهرها بعد أن انفلتت من الايشارب وهى فى غفلتها.

انتبهت لمداعبات الفتاة لها وهى تحاورها بلا صوت من داخل الفاترينة، فشعرت بالسعادة وراحت تتمايل برأسها يمينا ويسارا فى محاولة للمشاركة لتلك المداعبة.

ولكن.. وبلا مقدمات أطلقت الفتاة صرخة، كادت أن تدمر الزجاج من شدتها، والشاب قفز فجأة إلى داخل المحل، وكأنه هاجمه ثعبان الكوبرا.

وأدركت منال سبب ذعرهما المفاجىء، بعدما إنتبهت لانفراج الايشارب عن وجهها، وسارعت تلثم نفسها مرة أخرى وهى تتصرف بخطوات مسرعة ومرتبكة.

تلقفتها اشعة الشمس الحارقة، بعد تركها للمظلة، وأختلط كل شىء مع كيانها.. لم تعد تدرى ان كان إحساسها بلظى اللهيب من قوة المناخ، أم من فوران الدماء فى عروقها.. وذابت قطرات العرق مع دموعها المنزرفة بلا توقف.

خيل إليها أن خطواتها كانت تسحب من ورائها احداث الماضى وكلما أسرعت إذدادت وتلاحقت الذكريات فى أعماقها.

همست من خلال نحيبها المكتوم.

.. يا إلهى ارحمنى.

كانت منال ممشوقة القوام ومتوسطة الطول، خصلات شعرها الذهبى شديدة النعومة فلا حل معه إلا الجدائل الغليظة.. بشرتها ملساء كأوراق زهرة البانسيه، فى بياض ممتزج بحمرة الخجل المستمر.

تعيش وسط مجموعة من الأسر الفقيرة داخل منزل واحد، من العشوائيات القريبة من عزبة النخل.. تعيش وسطهم وهى تحمل مأساتها المؤلمة، فوق وجهها دون ذنب إقترفته.

الكل يتأذى عند رؤيتها، والجميع يأبى أن يتناول من يدها شيئا، كأنهم يخشون أن تنتقل إليهم بشاعة ملامحها لقد ولدت بتشوه خلقى فى وجهها، وقد تكورت غدة ضخمة شملت جزءا غير صغير من وجهها، بدءا من طرف أذنيها حتى أسفل جفنها الأيمن، مما أدى الى ارتفاع عينها اليمنى الى أعلى مستوى، وكاد حاجبيها أن ينتصف جبهتها. فبدت فى صورة الشيطان الذى يتخيلونه الكبار قبل الأطفال، عشرون عاما منذ ولادتها وحتى الأن وهى تتحمل فى كل ثانية من حياتها ما لا يمكن أن يتحمله أى إنسان عادى.

هى من أسرة فقيرة الحال، أباها نازح من الصعيد وأمها من الشرقية لها ثلاثة أشقاء ذكور هى الثانية فى الترتيب.

استطاع والدها أثناء عمله كخفير فى أحد المصانع القريبة من المنطقة أن يحتل قطعة أرض عشوائية صغيرة، ومع الأشهر تمكن من بناء ثلاثة أدوار كل دور به عدة غرف ضيقة باتت ملجأ للنازحين أمثاله مثل عمها وزوجته وابنائه الذكور الخمسة، وعمتها وزوجها وابنائهما الستة فى مراحل العمر المختلفة. جميعهم أقرباء.. باستثناء فاطمة الحكيمة التى يطلقون عليها الدكتورة، وتعمل فى مستشفى استثمارى بعد وفاة زوجها الممرض، الذى كان يعمل فى ذات المستشفى.

هكذا تعيش منال وسط قبيلة بشرية ينفرون منها باستثناء فاطمة أوالدكتورة فاطمة التى كانت تبدى لها بعض العطف. ولكنه بمقابل أيضا.

فمنال تقع على مسئوليتها كل شئون النظافة فى البيت، مع الالتزام بعدم الاقتراب من المطبخ، حتى لا تثير اشمئزازهم وتتجنب ما تعرضت له فى السابق، عندما تقيأ أحدهم وهى تقدم له طبق الطعام. فكان عليها ترتيب المكان، وتنظيف الأرض المبلط، ومسح درجات السلم بأكمله، و.. لا مانع من مساعدة الدكتورة فاطمة فى تنظيف غرفتها المنفصلة أسفل البناء، وهومقابل العطف الذى تفتقده من الجميع.

بدأ فستانها يلتصق بجسدها من كثرة الرطوبة والعرق، فراحت تجذب القماش بعيداً بأطراف أصابعها، وكأنها تنتزع أشواك الذكريات التى اخترقت كيانها.

قطعت الطريق فى اتجاه محطة متروالانفاق، لتستقله إلى منزلها فى عزبة النخل، حيث كانت عائدة من كليتها التى تدرس فيها وما إن استقرت داخل المترولتعود.. حتى عادت من جديد إلى ذكرياتها، وكيف خدمتها تلك العاهة فى أن تستكمل تعليمها، بالرغم من أن كل ممن فى المنزل لا أحد منهم قد

استكمل تعليمه للابتدائية، فأغلبهم يعمل فى طائفة المعمار كعمال، وبعضهم كبائعين جائلين وآخرين بلا عمل.

أما هى فكان نفورهم منها سببا مباشراً فى استطاعتها لمواصلة تعليمها، حيث كانت تنفرد بنفسها فوق سطح البناية كلما أمكنها ذلك وتستغرق فى دروسها بنهم كبير لا أحد يشعر بها ولا أحد يريد ذلك سوى ابن عمها المسعور البشرى الذى كان يتحين الفرصة فى أغلب الأوقات وينفرد بها بعد أن يأمرها بوضع وشاح أسود فوق وجهها حتى لا يرى بشاعته ويهددها بسكين يحمله، لكى تمتثل لأوامره الدنيئة ويظل يعبث بجسدها حتى يروى ظمأه الشارد بالرغم من وجود زوجة له وأولاد.

وما إن ينتهى منها حتى يتوعدها بالقتل إذا أفشت السر يوماً.. عشر سنوات، ومنذ كان عمرها إحدى عشرة سنة تقريباً، وهذا الوغد الذى يكبرها بمثل عمرها، وهو يمارس معها كل ألوان القهر والمذلة مستنداً على ظروف عمله كبائع متجول، فيأتيها فى أى وقت يرغبه، ويتركها مع دموعها وبقايا قذارته وسط إحساس عميق بالخوف والمذلة.

التفتت إلى سيدة تجلس بجوارها فى المتروو وبادرتها متسائلة على استيحاء وهى تخفى وجهها :

- كم الساعة الآن من فضلك؟

أجابت الأخرى بلا اكتراث.

- الرابعة.

كررت ما قالته السيدة فى نفسها مرددة.. الرابعة.

وتذكرت مهام الساعة الرابعة.. عليها الاتجاه إلى السطح مباشرة بعد عودتها حيث تجد ما ينتظرها من أطباق والأوانى الفارغة لتنظيفها بعد وجبة غذائهم، ثم تتفرغ لطعامها الذى يضعونه لها فى جانب من السطح، تجنباً للأكل برفقتها.

وتذكرت كيف اضطرت يوماً أن ترتدى ملابس داخلية مهملة لأحد أشقائها بعد أن بليت ملابسها واستغرقت أشهر طويلة حتى استطاعت أن تستجمع مبلغاً من مصروفها لتشترى به ملابس داخلية خاصة بها.

باق محطتان وتصل إلى منزلها.. وازدادت عربات المترو ازدحاماً مما قذف بخاطرها أحداثا لا يمكن أن تغيب عن ذاكرتها حينما كان يأمرها شقيقها الأصغر وهى فى سن الرابعة عشرة لتستقل معه الأتوبيس وتكشف عن وجهها فيضطر الركاب أن يبتعدوا عن جوارها فيتحين هو فرصة التجمع وانشغالهم بملامحها الغريبة ويمارس نشلهم، ثم يعود معها بحصيلة النشل،

ويلقى لها قروشاً لا تمثل شيئاً من حصيلته، وبالرغم من ذلك كانت تشعر ببعض الرضى.

لأنها ستتمكن من شراء كراسة أو كُتيب أو بضعة أقلام، كما أنها اعتادت التهديد بالتقاليد والقتل إذا ما أفشت سره هو أيضاً.. المهم أن تصل إلى هدفها.

و.. وصلت إلى المرحلة الثالثة بكلية الآداب قسم علم النفس، و.. وصلت أيضاً إلى محطة عزبة النخل حيث تقطن.

وبعد أن قطعت المسافة من طريق إلى آخر، ومن زقاق إلى ممر نهايته مسدودة، تحيط به العديد من المبانى العشوائية المتلاصقة، وبعض المحلات الصغيرة جداً، غير دكانين فى نهاية الممر، استغلهما صاحبهما فى مشروع القهوة البلدى، تجتمع فيها شوارب المنطقة أو رجالها كل مساء.

اندلفت إلى داخل أحد الابنية قبيل نهاية الحارة وبدأت تصعد أولى درجات السلم المتهالك. ثم.. التفتت إلى يمينها لتجد باب فاطمة موارباً.. فقالت بصوت مسموع :

– مساء الخير يا دكتورة فاطمة.

أجابتها الأخرى دون أن تراها :

- مساء النور يا ست البنات.

وصعدت ست البنات أو كما تتمنى أن تكون كذلك.. ولم تتوان وهى فى طريق صعودها أن تلتقط بعض المخلفات القذرة، الزجاجات الفارغة والمكسورة ثم ضمتها إلى صدرها بكلتا يديها ضاغطة تحت إبطيها ببعض كتبها الدراسية إلى أن وصلت إلى سلة المخلفات التى بجوار باب شقتها، ودست كل ما التقطته فيها، وفركت كفيها لتتخلص من بقايا القاذورات، وتناولت كتبها تحت إبطيها.. ثم طرقت باب الشقة بلطف شديد، لا يتناسب مع الضوضاء بداخلها.. وبعد مرور أكثر من دقيقتين، انفلج الباب لتظهر أمها التى بادرتها بتعجب يثير الدهشة والغثيان قائلة بلا مبالاة :

- منال.. هل أنت كنت بالخارج؟

خمس ساعات وأمها التى حملتها تسعة أشهر متواصلة لا تدرى أنها كانت بالداخل أم بالخارج.

تجاوزتها الى الداخل دون أن تتفوه ببنت شفة، ولاحظت تجمع أفراد الأسرة مع بعض الأقارب حول ثلاث طبالى، وهم يلتهمون طعام غذائهم. بنهم شديد، كما لاحظت تعمدهم ألا ينظروا إليها عندما علموا بوصولها.

ودخلت إلى غرفة ضيقة للغاية، بل إلى حفرة مظلمة لا يفصلها عن الحمام البلدى سوى ستار من القماش الكستور المزخرف، وهكذا كانت تعيش. بل هكذا كانت تنبض بالحياة.. لأنها فى الحقيقة لا تعيش ولا تتعايش.. بل كانت تنبض بالحياة. مضطرة، ولا تملك الموت استسلاما. ألقت بكتابها على حافة المرتبة الأرضية، وأحكمت وضع الإيشارب فوق وجهها ثم عادت منصرفة ومسرعة الى أعلى السطح.. وانزوت فى ركن من أركانه تراقب صيحات الدجاج وقفزات الأرانب ومواء قطة شاردة ومأمأة الخروف الوحيد : كل هذا وهى تتابعهم بنظرها وتستمع إلى صور الماضى بكل قهره ومذلته والحاضر بكل ظلمه وقسوته.

و.. انتبهت إلى صوت إحدى بنات عمها وهى تصيح :

- أكلك على الباب يا منال.

نهضت منال بهدوء واتجهت الى باب السطح وفتحته، لتجد أطباق طعامها على حافة أعلى درجة فى السلم.. تناولته برضى واتجهت نحومكانها المعتاد فى أحد الأركان، وبدأت تأكل بيدها اليمنى وتدفع الخروف المتطفل بيدها اليسرى، وبعد أن انتهت ألقت برأسها إلى جدار سور السطح مستمتعة بوسادة الطوب الطفلى المنشأ منه السور، وأغلقت جفنيها فى رغبة ملحة

وعنيفة، بألا ترى شيئا سوى ما استقر فى وجدانها وخيالها منذ ساعة، وهوما رأته داخل فاترينة محل الملابس الشهير من ملابس فاخرة وجمال التماثيل الخشبية، وكأنها حقيقة وحاولت ادعاء النوم لتحلم بواقع غير حقيقى.. ولكنها نامت بالفعل.

٢

جلجل صوت المؤذن وهو يدعو لصلاة الفجر.

واستيقظت منال من نومها، وما كادت تستوعب الحدث مع صوت المؤذن، حتى نهضت مسرعة فى ارتباك شديد، وأسرعت تعد وفوق السطح فى اتجاه الباب، ولكنها توقفت فجأة وقد بدأ قلبها يزداد اضطرابا، وأيقنت أن عليها الانتظار لمدة ساعة أو أكثر لحين انتهاء الجميع من طقوسهم اليومية، مع كل إشراقة فجر يوم جديد.. فهى عادة تستيقظ قبل الجميع لتنتهى من واجباتها وكذلك من شئونها الخاصة، ثم تنصرف بعدهم إلى الجامعة حسب مواعيد محاضراتها.

عادت إلى مكانها واستكانت صامتة فى انكماش وترقب.

وتحول المكان إلى بانوراما لأحد الأسواق الشعبية المصغرة، حيث بدأت الأصوات تتعالى تباعا وهى منصتة باهتمام بالغ، لتحدد شخصية كل صوت يترامى إلى مسامعها.

.. صباح الخير يا أسطى.

.. سجادة الصلاة فين يا بنت.

.. الفطار يا أم على.

.. اخرجى يا هدى من الحمام.

.. الأفرول فين يا حاجة.

.. اعمل حساب أخواتك يا واد فى الفول.

.. يخرب بيتك ع الصبح، البنطلون مقطوع.

.. عدة الشغل فين يا أم محمود.

.. صباح الفل يا ست الكل.

و.. أمال فين منال.. يا بنت يا منال.

وكان الصوت هذه المرة لأبيها.

وهنا وكأن منال قد رشقت فجأة بسكين فى حنجرتها، وانتفضت منزعجة مهرولة إلى خارج السطح وهى تردد بصوت هزيل :

- أنا هنا يابا.. ثانية واكون عندك.

قفزت درجات السلم مسرعة.

وقفت أمام والدها فى انتظار أوامره ولكنه انشغل عنها فى أمور أخرى لم يسألها أين كانت؟ ولا أين نامت؟ لم يطلب شيئاً ولم يأمر بشيء.

انسحبت من أمامه بهدوء وتوارت خلف ستارة غرفتها..أو.. وراء الساتر الذى يفصلها عن باقى الغرف.

وعلى ضوء المصباح الخافت جداً، بدأت ترتب الأوراق التى ستأخذها معها إلى الكلية وتتأكد من وجود نقود تكفيها لمواصلاتها هذا اليوم.

وما إن انصرف رجال المنزل كل إلى سبيله، حتى دخلت عليها والدتها والدهشة تملأ نظرتها قائلة :

- ما هذا يا منال.. كيف ارتديت ملابس الخروج قبل أن تنتهى من تنظيف البيت؟

نظرت إلى ملابسها وكأنها اكتشفت فجأة بأنها نامت بملابسها الكاملة وازدردت ريقها قبل أن تجيب قائلة :

- لا يا أمى أنا كنت أتأكد من طول الفستان فقط.. ثوان وأكون جاهزة.

و.. بالفعل ثوان قليلة وكانت منال قد بدلت ملابسها بجلباب العمل اليومى.

وشرعت فى تنفيذ الأمور المكلفة بها كل يوم دون حدوث أى ضوضاء قد يجلب عليها بعض السباب أو اللعنات من نساء

المنزل اللواتى انصرفن إلى شئونهن الخاصة فى المطبخ أو الحياكة.. أو النميمة.

ولم تمض نصف ساعة وكل شىء قد أعيد ترتيبه وتنظيفه، وأسرعت مرة أخرى إلى غرفتها بعد أن تحينت الفرصة لتغسل وجهها فى الحمام، وعادت لارتداء ملابس الأمس بعد أن لاحظت أن المكواة فى حوزة زوجة ابن عمها، ولهذا لم تتمكن من كى الملابس البديلة التى تتناوبها مع ملابسها التى ترتديها.

وتسللت إلى خارج الشقة، وهى تطلق زفرة طويلة من صدرها وكأنها تلفظ كابوسا يوميا يقبع فوق صدرها مع كل صباح ولا تتخلص منه إلا بعد انصرافها.

وعند وصولها إلى آخر درجات السلم، لاحظت مرة أخرى انفلاج باب الشقة الخاص بالحكيمة فاطمة.

توقفت برهة أمام الباب المفتوح قبل أن تردد :

- صباح الخير يا ست فاطمة.

جاءها صوت المرأة خافتا من الداخل :

- ادخلى يا منال.. تعالى يا ابنتى.

دخلت لتجدها متكورة فوق فراشها، وقد التفت ببعض الأغطية وعقدت إيشاربا أسود حول جبهتها.. وبادرتها :

- ماذا بك يا ست فاطمة.

-لقد هاجمنى البرد يا ابنتى، وأشعر بالهزال الشديد.

اقتربت منها فى مودة وقالت بصدق :

- سلامتك يا دكتورة.. أمهلينى دقيقتين وسأرتب لك كل شىء فى الشقة.. و.. .

قاطعتها بلهفة :

- لا.. لا.. ربنا يسعدك يا ابنتى، فأنا لست محتاجة لأى شىء الآن.. و..

ولكنى أحتاجك فى أمر آخر، أرجو ألا يضايقك تنفيذه.

- انتى تأمرى يا ست فاطمة..

- أريد أن أعطيك طلب اجازة لى لمدة ثلاثة أيام، لتقدميه فى المستشفى حتى لا يفصلونى من عملى.. أنت تعلمين أن المستشفى استثمارى، ولا أحد يرحم أحد.

أجابتها بلا تردد.

- تحت أمرك يا دكتورة.. ولكن.. لمن أسلم الطلب؟

- اسألى عن الدكتور إسماعيل، هو رئيس القسم الذى أعمل فيه.

ومدت يدها إليها بالطلب، وتناولته منال، وأتخذت طريقها للانصراف.. ولكن المرأة تستوقفها قائلة :

- انتظرى يا حبيبتى.. انتظرى.

ودست يدها تحت الوسادة وتناولت حقيبة صغيرة جدا وفتحتها وسحبت منها ورقة نقدية بقيمة الجنيه.

ثم مدتها إليها مرة أخرى وهى تقول :

- خذى يا ابنتى هذا المبلغ للمواصلات. و.. .

ووجدت منال نفسها فى موقف لا تحسد عليه.

فهى تأبى أن تمد يدها لتأخذ الجنيه.. وتتمنى ذلك.. ولكن إذا لم تفعل فلن تتمكن بالفعل من الوصول إلى المستشفى ثم إلى الجامعة...

وعلى استحياء تناولت منها النقود وهى تردد :

- كما تريدين.. وسأرد لك الباقى عند عودتى.

ابتسمت الحكيمة بهدوء وأجابت :

- لا تشغلى بالك بهذا.

وانصرفت منال.

شعرت بالارتياح وهى فى طريقها.. فطالما أحست بذلك الإحساس عندما يكلفها أحد بشىء ما، مهما كان هذا الشىء.. كم تمنت كثيرا أن تكون فى دائرة اهتمام الآخرين، تريد أن تشعر بكيانها وبأن لوجودها قيمة، حتى لو كانت قيمتها فى إطار تنظيف المكان أو توصيل الطلبات كما تفعل الآن.

هاجمتها ذكرى حادثة بشعة، عندما طلبت منها زوجة ابن عمها أن تبادلها مكان نومها، لأنها شعرت بالأرق وتريد أن تجد للنعاس سبيلا.. كانت ليلة خانقة.. ونفذت رغبة زوجة ابن عمها ذلك الرجل الذى أهدر آدميتها وأنوثتها كثيرا..، فى هذه الليلة ما كادت تغمض جفنيها وهى تتلفح بغطاء جديد لأول مرة، حتى تسللت قشعريرة الخوف فجأة إلى جسدها المتكور، عندما أحست بمن يلتصق بظهرها وهو يهمس بكلمات العشق والهيام، ولكن.. الصوت كان مختلفا عن كل مرة.. يومها سكنت لحظات صامتة وكأنها كالأموات، جاهدت فيها لتتبين ذلك الصوت المختلف، وما كادت تلتفت إلى محدثها حتى أطلقت صرخة لم

يكتب لها الوضوح عندما فوجئت بقبضة يد شرسة تكمم أنفاسها، والذعر والدهشة فى عين الرجل المتسلل.. كان أخاها الأكبر.. الذى راح يمطرها بالسباب والتهديد.

.. ما الذى أتى بك إلى هنا يا ابنة الشياطين.

و.. لكمها بقوة يده اليسرى والهلع ينتابه قائلا :

.. سأقتلك إذا علم أحد بما حدث.. إياك وأن تبوحى بهذا.

تذكرت ليلتها كيف هرولت إلى غرفتها الصغيرة لتوقظ الزوجة المقصودة، متعللة بأنها لم تستطع النوم فى مكان غير مكانها.

لم تغب هذه اللحظة عن مخيلتها سنوات طويلة، ولم تنس نظرة الزوجة لها وهى عائدة إلى أدراجها، وكأنها تتساءل هل هى اكتشفت الحقيقة أم لا. و..

قطعت الطريق فى الاتجاه الآخر وهى تواصل اجترار ذكرى تلك الليلة.

الليلة التى قضتها ساهرة مع نفسها، غير مصدقة لما يحدث حولها.. أدركت يومها أن الوباء ليس مصدره ابن عمها فقط

ولكن الفساد يشمل أقرب الناس إليها أيضا، وما خفى كان أعظم.

انشق وجدانها بجرح غائر، وهى تتأمل ذلك المجتمع الصغير الذى يضم بين جنباته الشوارب المرعبة.. والأسلحة النارية. المعلقة فوق الحائط.. والتخفى داخل الغرف عندما يحضر شخص غريب إمعانا فى التأدب، . وكلمات الشهامة والعنترية.

اكتشفت فى ليلتها هذه أن المكان يضم أيضا بؤر فساد مستترة، وبأن كل شىء زائف.. حتى الحقيقة نفسها.

و.. وصلت إلى بوابة المستشفى الاستثمارى، واندلفت تخطو فوق الممر الطويل المؤدى إلى المبنى ذاته، لفت نظرها أن البناء يعيدون طلاءه من الخارج.. وأمام موظفى الاستعلامات تساءلت على استحياء عن الدكتور إسماعيل، فأشار لها أحدهم قائلا بلا مبالاة :

- لقد انصرف الآن فقط.. حاولى أن تلحقى به فلم يمض على انصرافه غير ثوان قليلة.

استجمعت شجاعتها وهى تقول :

- ولكنى لا أعرفه.. ومعى رسالة هامة إليه..و.. .

وقبل أن تستطرد، نهض أحدهم مسرعا فى اتجاه الباب الداخلى وهى تتبعه بحماس، ثم أشار فى اتجاه رجل يسير بخطى بطيئة.. وقال :

- هذا هوالدكتور إسماعيل.. الحقى به قبل أن يصل إلى سيارته.

هرولت فى اتجاه الطبيب، وهى تحكم الإيشارب فوق وجهها.

وقبل أن تصل إليه بأمتار قليلة، فوجئت بسقالة خشبية تترنح فى الهواء، متخذة طريقها فوق رأس الطبيب، وبلا تفكير أوتردد قفزت بقوة كأنها طائر بأجنحة، ودفعت الرجل بكلتا يديها فى ظهره حتى أسقطته على الارض وهى أيضا هوت بجانبه من شدة الاندفاع، وفى هذه اللحظة كانت السقالة قد وصلت إلى الأرض، ولكن نصفها استقر فوق قدميها، مما دفعها لأن تطلق صرخة مدوية من شدة الألم.. ولم تمض ثوان قليلة حتى تجمهر حشد كبير حولهما، واختلطت كلمات الطبيب المذعورة وهو يتساءل فى رعب :

.. ماذا حدث.. ما الذى يحدث؟ !

وآخرون يرددون :

.. حمدا لله على سلامتك يا دكتور اسماعيل.

.. قدر ولطف يا سعادة البك.

.. سنعاقب هذا المقاول المهمل، سنلغى التعاقد معه.

همهمات كثيرة.. وأقوال متعددة، والدكتور إسماعيل يقف وسطهم بعدما ساعدوه على النهوض، بينما لا أحد يلتفت إلى أنات منال وهى ممدة على الأرض والسقالة لا زالت فوق قدميها، فى حين أن الرجل أعاد تساؤله مرة أخرى قائلا :

- ما الذى حدث..؟!

فتطوع أحدهم مجيبا :

- السقالة الخشبية كادت أن تسقط فوق سعادتك.. لولا هذه الفتاة التى دفعتك.. و..

هنا فقط انتبه الجميع للفتاة الراقدة، واندفع الدكتور إسماعيل منحنيا لمساعدتها وهويقول :

- ارفعوا السقالة عن أرجلها.. ابتعدوا قليلا لتأخذ قسطا من الهواء.. أسرعوا فى نقلها إلى غرفة العمليات لابد وأن قدميها قد كسرتا. و...

فى دقائق كانت منال ترقد فوق السرير داخل غرفة العمليات بعدما استدعوا لها طبيب العظام المتخصص والذى أقر بوجوب إجراء العملية، وتجبيس قدميها.. بينما جلس الدكتور إسماعيل فى استراحة مكتبه يفكر فيما حدث مذهولا. !

وبعد مضى أكثر من ساعتين، دخل عليه الطبيب الجراح وهويقول مازحا :

- حمدا لله على سلامتك يا دكتور إسماعيل.. القدر كان رحيم بك.. المفروض أنك الآن فى الجبس بدلا من الفتاة.

قال الدكتور إسماعيل بجدية :

- كيف حالها يا دكتور؟!

-إنها بخير.. ولكن..

تساءل بلهفة :

- ولكن ماذا.. هل الأمر خطير؟

أجابه الجراح بهدوء وبثقة :

- لا.لا.. ولكن، أقصد ألم يلفت نظرك وجه الفتاة؟

نظر إليه بتعجب ! وقال باقتضاب :

- لا.

- كيف لم تنتبه يا دكتور إسماعيل الى وجهها.. الفتاة تعانى من عيب كبير يشوه ملامحها تماما.. مسكينة.. مؤكد أنها عانت الكثير من أجل هذا التشوه.

نهض من وراء مكتبه دون أن يتفوه بكلمة واحدة.. واتجه إلى غرفة منال، التى تم انتقالها فيها بعد إجراء العملية.

واقترب من فراشها وهى غائبة تحت تأثير البنج، وسرعان ما استقرت فوق أساريره ملامح الشفقة قبل الانزعاج عندما تفحص وجهها المخيف.

ثم عاد إلى مكتبه وهو مهموم.. أو.. مشفق.

لم ينصرف.. بل لم يفكر فى الانصراف، وجلس الساعات الطويلة، فى مكتبه يتلقى التهانى بالنجاة من الزملاء والعاملين بالمستشفى، وعندما بدأ الغروب يفترش الأفق، تحرك مرة أخرى فى اتجاه غرفة منال، للاطمئنان عليها.. ولكن فى هذه المرة لم يتمكن من رؤية وجهها، بعد أن أفاقت من البنج وسارعت بإخفاء ملامحها بالايشارب المعتاد.

اقترب منها وهو يربت على كتفها برفق قائلا :

- كيف حالك الآن يا ابنتى؟

وصله صوتها المضطرب قائلة :

- قدماى يا دكتور.. ماذا حدث لقدمىّ.. أهلى سيمزقوننى على هذا التأخير.

جلس على طرف الفراش.. ثم قال :

- لا تَخَشْى شيئا يا ابنتى.. أخبرينى كيف أتصل بهم وانا أطمئنهم عليك.. وقبل هذا اسمحى لى بأن أعبر لك عن شكرى وامتنانى، لانك فى الحقيقة أنقذتى حياتى.. رجل فى مثل عمرى كان من المؤكد ستزهق روحه فى الحال.

وبنبرة متهالكة راحت منال تخبره بقصة طلب الحكيمة فاطمة وبسبب تواجدها داخل المستشفى.

ردد وهو يهدئ من روعها :

- استريحى يا ابنتى ولا تخشى شيئا، وسأتولى أنا أمر إخطار أهلك .. حاولى النوم وسأحضر فى الصباح للاطمئنان عليك.

و.. تركها منصرفا.

بينما سكنت منال مستسلمة وهى تحملق فى سقف الغرفة.

وكأنها تتبين الأحداث المقبلة من صفعات.. وسكاكين. وأسلحة نارية.. والكلمات العنترية.. واللعنات والسباب، وكأنها السبب فى تلك الحادثة، أو لأنها ستتشغل بعضا من وقتهم الثمين وأفزعتها تلك التوقعات، فأغمضت عينيها وكأنها تهرب من الواقع الذى ستراه.. ونامت.. بل غابت عن الوعى من شدة الهلع والخوف.

٣

كان قرارا قدريا.

لم يكن بدافع الشفقة، أو من منطلق الإنسانية أو عرفانا بالجميل.

قرارا غير بشرى وإن كان يبدو فى ظاهره غير ذلك.

فاجأ الدكتور إسماعيل الجميع برغبته وقراره بأن يجرى لمنال عملية تجميل فى وجهها مع تحمله لكافة النفقات الخاصة بذلك.

ثلاثون ألف جنيه.. هبط ذلك الرقم كالصاعقة فوق رؤوس أسرة وأقارب منال.

لم يكن فى مقدور أحد منهم أن يصدق ما يحدث حوله.. حتى البعض الذى تمكن من تمالك نفسه والتخلص من ذهوله حاول أن يطرح فكرة سخيفة تعبر عن قمة الأنانية ومدى إحساسهم باللامبالاة تجاه ابنتهم وشقيقتهم وقريبتهم منال.

حيث اقترح أخواها بأن يرصد ذلك الطبيب الابله هذا المبلغ كتعويض عن إصابتها، ويستلموا هم الفدية بدلا عنها.

وتغابى غيرهم باقتراح أكثر وضاعة بأن يقتسموا المبلغ فيما بينهم حتى ولوتم تخفيضه إلى عشرة آلاف فقط.

وانبرت زوجة ابن عمها الغافل لتتقيىء غيرتها المستترة رافضة إجراء العملية، بحجة تعارضها مع شريعة الأديان.

وانتفخت الأوداج وتململت الشوارب الصقرية وتناثرت العبارات العنترية معترضين ومحتجين على تصرف منال الطائش، لأنها ذهبت إلى المستشفى دون علمهم

لقد ارتكبت فعلاً فاحشاً كان يجب أن تعاقب عليه لا أن تتجمل.

كان الصراع عنيفاً ولكن إرادة القدر كانت أقوى.

وذلك عندما تدخل الأب لأول مرة وأيد رغبة الدكتور إسماعيل فى إجراء العملية على أن يكون جزاؤه عند الله.

وأمام يأس الجميع وإصرار الطبيب ومحاولات الأب، بدأت تتضاءل أطماعهم وتتهاوى أحلامهم، وأصبح كل منهم يدفن أمانيه فى صدره كل حسب هواه.. واختلطت الأفكار الصامتة فى رؤوسهم.. فقد تموت ويستريحون من هذا الوجه القبيح.. والبعض الآخر وجدها فرصة للمطالبة بالتعويض فى هذه الحالة، وسال لعاب أحدهم بأنه سوف يستغنى عن إخفاء وجهها،

والسكين وسينعم برغباته القذرة دون تأفف.. وآخر وجدها وسيلة أكثر ضمانا فى تحقيق مكاسب كبيرة خلال استغلالها فى النشل والسرقة.

فوافق الجميع على مضض.

كل هذا وصاحبة الشأن لا تملك أن تتفوه بكلمة واحدة، ولا تعرف لماذا، وكيف وافق الجميع.. كل ما استطاعت أن تفعله هوأن تخترق هذا السياج الأسود من حولها بعبارة صامتة رددتها فى نفسها قائلة :

.. شكراً يا إلهى.

وهى لا تعلم أنه قرار قدرى. لم يكن لأحد منهم فضل فيه وانسحب الجميع من حولها الواحد تلوالآخر وكأنهم ألقوا بها فى بئر النسيان وانشغلوا بشئونهم الحياتية بعيداً عنها.

وتقرر موعد العملية بعد أسبوع.

بدت كاللؤلؤة التى تم التقاطها من قاع البحر وأذيل من حولها كل الشوائب والرمال الجاثمة فوقها، ليسطع بريقها فى لمعان مبهر.

كقطعة ماس استخرجت من جوف الصخور، فنفضت عن نفسها كل تراكمات عوامل التعرية، لتتلألأ بألوان الطيف البديع.

كالزهرة العطشى التى مال فرعها وقد سقط عليها فجأة ندى الفجر فامتصته مع نسمات الربيع.

كطائر حبيس كاد الحزن يقتله، لولا أن امتدت إليه يد الرحمة لتطلق سراحه من وراء قضبانه، فانطلق يسبح فى الفضاء مغرداً بأحلى وأجمل ترانيم الحرية.

كالشمس يوم إشراقها فى يوم صحو لتتوسط السماء الصافية فبدت وكأنها تاج فوق رأس الكون كله.

كأنها كل هذا..

عندما رفعت الضمادات من فوق وجه منال بعد إجراء العملية.. فأشرقت بجمال أبدع الخالق فى خلقه، ولم يجد فريق الأطباء الشباب ومجموعة التمريض المرافقة للدكتور إسماعيل، تعبيراً يفصح عن حقيقة انبهارهم غير أن يرددوا بهمهمات خافتة قائلين :

.. ما شاء الله.

.. سبحان من صور هذا الجمال.

ومنال تنظر إلى وجوههم وهى مستسلمة تماماً، وكأنها تحاول أن ترى صورتها الجديدة من خلال أعينهم.

وما كادت تحرك يدها بتثاقل لتتلمس مكان العملية، حتى أمسك الدكتور اسماعيل يدها برفق قائلاً بصدق :

- لا يا ابنتى.. لاتخفى وجهك الجميل عنا.. بل لا تحرمينا منه.

فاستكانت راضية وهى ترمقه بنظرة مستعطفة، وكأنها ترجوه أن يخبرها بحقيقة ما يراه.

ولم يجد الطبيب عناءً لكى يدرك ما يدور فى خلدها، فاقترب منها بانحناءة قليلة وقال مبتسماً :

- ما تحسرت قط على شبابى الذى مضى إلا فى هذه اللحظة..وعزائى الوحيد أننى أول من رأيت هذا الوجه الجميل..ولكن عليك بإطاعة أوامرى بأن تغمضى جفنيك تأهباً للنوم وسوف أحضر إليك فى الصباح.. و..

وقبل أن تنتهى من تعليماته كانت منال قد أغلقت جفنيها بالفعل ليس طلباً للنوم ولكن للتأكد من أن ما تسمعه وما تراه حقيقة وليس حلماً.

وبمجرد أن أطفئ نور مصباح غرفتها، حتى عادت إلى يقظتها وراحت تمسح المكان بنظراتها وكأنها تتأمل أحداث الماضى المظلم الذى تعايشت معه سنوات طوال.

سنوات الذل والقهر .. الوحدة والانطواء، دموع الحرمان والشقاء .. رأت الماضى يتجسد أمام عينيها بكل تفاصيله البشعة، وبالرغم من ذلك كان يسيطر عليها إحساس جديد يدغدغ وجدانها لأول مرة إحساس بالتفاؤل والطمأنينة، خاصة فى اللحظات التى كانت تتحسس فيها وجهها بأصابعها المرتجفة، لم تنم هذه الليلة.. و..

فى اليوم التالى كان صباحاً مشهوداً، حيث توالى حضور أفراد أسرتها وأقاربها، والتفوا حول فراشها مشدوهين من شدة المفاجأة.. صامتين تماماً، لا شيء سوى ملامح متباينة فوق وجوههم.. ملامح تكاد تنطق بما يجبيش فى صدورهم مختلفة المعانى ما بين الانبهار والذهول، والسخط والتشاؤم..الغيرة والحيرة كان صمتًا مزعجاً ومخيفاً.. الأسارير جامدة والنظرات متصلبة لا حياة فيها.

وما إن دخل الدكتور إسماعيل إلى غرفتها، حتى تحركت الأجسام فى تثاقل وهم ينظرون إلى كبيرهم فى تحفز، فاقترب والدها من الطبيب وبادره قائلاً فى حسم :

- جئنا لنأخذها معنا يا دكتور، أعتقد انك إنتهيت من العملية.

لم يجبه..وتحول بنظرته تجاه منال، التى كاد الفزع يفجر شرايين بشرتها..ثم عاد إلى الأب مجيباً :

- إنها فى حاجة إلى الرعاية لمدة ثلاثة أيام على الأقل..و..

ما كاد يواصل كلماته حتى فوجئ بصيحات الاعتراض من كل جانب وكأنهم جميعاً فى مظاهرة غضب.

..لا داعى لذلك.

.. العملية وانتهت ماذا تريد ثانية.

.. ابنتنا ستعود معنا.

.. هذه ميوعة لم نعتد عليها.

.. وما الضرورة لبقائها.. و..؟

تطاول أحدهم بصفاقة الجاهل قائلاً :

- أجرك ستأخذه م الحكومة..فماذا تريد؟

ثم التفت إلى منال صائحاً بتبجح :

- انهضى يا بنت واستعدى للانصراف معنا.

وقبل أن ينتهى قريبها من كلامه، كانت منال قد تقوست فجأة فوق الفراش، استعداداً لمغادرة المكان برفقتهم، ولم يجد الدكتور إسماعيل مفراً من أن يتعامل معهم بأسلوبهم المستفز. وقال بصوت غاضب :

- ما هذا الهراء الذى تقولونه؟ منال فى حاجة للرعاية تحت إشرافى.. وهناك خطورة سوف أحملكم مسئوليتها وأنا..

ولكنه توقف عن الكلام مذهولا، من تصرف بعضهم فى ظل صمت والدها المؤيد لهم.

حيث اقترب ابن عمها بجرأة غير متوقعة، وجذب منال من ذراعها بقسوة لا يتحملها أشد الرجال، حتى كادت أن تسقط على الأرض.. وردد صارخاً :

- قومى يا بنت.. ولو اعترضنا أحد سوف نمزق جسده بالسكاكين.

وبلا إرادة وجدت منال نفسها تصرخ فى هلع بمجرد أن سمعت كلمة السكاكين.. ورددت فى رعب :

- لا.. أنا جاهزة للذهاب معكم الآن.

وفى محاولة يائسة قال الدكتور اسماعيل برفق شديد مستسلماً:

- من فضلكم دعوها على الأقل حتى المساء، حتى أتأكد من نجاح العملية ووضع بعض المراهم فوق وجهها، وأنا بنفسى سوف أحضرها إليكم فى نهاية اليوم.

وقبل أن يتذمر البعض الآخر، فوجئ الجميع بالشخص المتهور يقول بتحدٍ :

- لا مانع.. ولكنى سأظل معها لأعود بها إلى البيت فى المساء.

وهنا.. انفرجت الأسارير وهدأت الأوداج النافرة.. واهتزت الشوارب بفخر.. و.. وافق الطبيب مضطراً.

وانصرف الجميع فى زهو.. سعداء بشهامة ابن العم وبانتصارهم على الطبيب المتعجرف.. أو بانتصارهم على أى أحد.

ومرة أخرى استلقت منال فوق فراشها مستسلمة ليد الممرضة وهى تضع الأدوية المرهمية فوق وجهها حسب تعليمات الطبيب، بينما جلس الرجل الشهم مستكينا كالحمل الوديع فوق مقعد بجوار الفراش، يراقب الأمر فى هدوء شديد

وكأنه اكتشف فجأة أنه وحيد وأصبح بلا معاونين..وتبين قدر نفسه فسكن هادئاً.

و.. مضت الساعات. والممرضات يشغلن الغرفة الواحدة تلو الأخرى، يتممن عملهن حسب تعليمات الدكتور إسماعيل وبدأ الغروب يزحف فى الأفق.. وزحف معه ابن العم كالأفعى، ليجلس على طرف الفراش متحيناً فرصة وجوده منفرداً فى الغرفة، وقال بنبرة متلطفة كالفحيح.

- حمدا لله على سلامتك يا منال.. إنتى أصبحت جميلة الجميلات آه لوترى جمالك الآن، هذا من حظى، سوف أشترى لكى هدية رائعة..زجاجة عطر..، برفال أو برفان كما يقولون أولاد البندر.. و..

وبدأت يده تندس تحت الغطاء لتلامس أطراف قدميها وما كاد يتوغل بجرأة حتى انتفض عائداً إلى مقعده بعدما شعر بقدوم أحد إلى الغرفة.

وكان الدكتور إسماعيل الذى دخل عليها مبتسماً.. قائلاً.

- ستتركين فراغا عندنا يا ست منال.. لقد استجابت بشرة وجهك للعملية، والضغط منتظم، وكل شيء أصبح على ما يرام.. و..ونظر إلى ابن العم مستطرداً :

وأنا جاهز لتوصيلكما للمنزل كما وعدتكما.

اتسعت ابتسامة ابن العم لتظهر أسنانه الصفراء المتآكلة من كثرة مضغ الأفيون وشرب الكحوليات، ونهض دون أن يتفوه بكلمة واحدة يستدير بوجهه بعيداً عن نظرة الطبيب وكأنه يخفى نفسه عنه أو ينفى عن شخصيته بأنه نفس الرجل الذى كان ثائراً فى الصباح.

كان الطريق طويلاً، والدكتور إسماعيل يقود السيارة وبجواره الرجل بينما جلست منال فى المعقد الخلفى، وجميعهم يشتركون فى التزامهم بالصمت.

وبمجرد أن وصلت السيارة أمام المنزل وتوقفت، عاد ابن العم لصفاقته أو لإحساسه بأنه لم يعد وحيدا، وهبط من السيارة برفقة منال.. ثم قال للطبيب بعجرفة :

- شكرا يا دكتور.. على كل حال لو احتجت توقيع أو شهادة منا تقدمها للحكومة اوالمستشفى لكى تأخذ أجرك كاملا نحن رجال ومستعدون لأى شىء.

لم يجبه الدكتور إسماعيل وانطلق بسيارته دون أن يعره أى اهتمام، وكأنه لم يستمع لأى صوت.

بينما واصل الرجل السير إلى داخل البناء العشوائى، ومنال تخطو، من خلفه فى صمت وهى تحمل فوق وجهها الأربطة، والضمادات.

وعند دخولها الى داخل المسكن، لاحظت منال تكدس وتجمع العائلة بأكملها أوكل ساكنى البناء باستثناء الحكيمة فاطمة.. وكأنهم فى مأتم.

اندلفت إلى غرفتها أو إلى جحرها، وجلست على طرف المرتبة القطنية الملقاة فى طرف الغرفة، وراحت تتصنت الحوار الدائر بينهم.

قال الأب بنبرة متزنة موجها حديثه لابن العم :

- هل دفعت أى مبالغ يا سليم؟

أجابه الرجل بشموخ :

- وافرض يا عمى.. إنها من لحمى.. ونحن ستر وغطاء.

كرر الأب سؤاله. قائلا :

- هل دفعت شيئا.؟

أجاب الرجل وهو يسقط نظرته إلى الأرض :

- لا..

ثم بدأت التساؤلات.. والاقتراحات.. والقرارات.. تتناقل فوق ألسنة الجميع :

.. البنت سبحان الله أصبحت جميلة جدا.

.. على العموم هى كبرت وباتت فى سن الزواج.

.. هذا الكلام سابق لأوانه.. عندما تنتهى من تعليمها سنفكر فى الأمر.

وهنا انتفض أحد أشقائها صارخا.

.. لا.. إلى هذا القدر من التعليم وكفى.. منذ متى وبناتنا ينكشفون على أحد.

قالت زوجته وهى تمصمص على شفتيها :

.. عندك حق.. نحن من بيت أبونا إلى بيت رجلنا.

همهمت الأم أخيرا وقالت :

.. إنها فى السنة الأخيرة من دراستها كما تقول.

مضت لحظات صمت شملت الجميع، وكأنهم تنبهوا فجأة بأن منال كانت تدرس فى الجامعة وبأنها تنصرف كل يوم وتعود فى أى وقت دون أن يشعر بها أحد.

وانبرت زوجة أخيها معترضة بكل غيرة وحقد قائلة :

- إحنا لا ذهبنا إلى مدارس ولا سمعنا عن التعليم.. و..

و.. صمتت لحظة ازدردت فيها ريقها ثم واصلت قائلة :

- ماذا يقولون عنا فى البلد؟

وهنا صاح الجميع بمقولات متشابهة :

.. أعوذ بالله.. نحن أسياد الكل.

وفى صوت أجش قال الأخ الأكبر :

- انتهينا.. غير مسموح لها بالخروج من المنزل بعد اليوم، لحين يأتى لها ابن الحلال.

و.. انتهى الاجتماع بهذا القرار.. أوبذلك الحكم.

والجميع لا يشعر بوجود منال، التى ألقت بجسدها فوق الفراش الأرضى، وهى تضع كفها فوق فمها لتكمم صيحات الألم وتكبت دموع الحسرة، وهى تلعن أقدارها التى لم ترحمها وهى قبيحة ولا حتى وهى جميلة.

وغابت فى إغماءة فجائية بعد أن رددت مقهورة فى صمت.

- يارب أنت الحق والعدل.. فأنقذنى.

٤

اليوم غير عادى.. تصرفات أهل البيت عند منال غير طبيعية، حيث كثرت الهمهمات وإزدادت التلميحات.

اليوم سيصل ابن الخال أو ابن الحلال.. لم تتصور منال أن الامور سوف تمضى بهذه السرعة.. فطوال الفترة الماضية كان يترامى إلى مسامعها مميزات ذلك الفارس المغوار الذى سيحضر ليأخذها فوق جواده الأبيض منطلقا إلى عش الزوجية.

فى بلادهم الأصلية.. الفارس من أصحاب الأطيان يملك فدانين وعشرة قراريط استحوذ عليهم من إرث أبيه. وبالرغم من كونه مزارعا إلا أنه مثقف ومتعلم حيث انتهى من المرحلة الإعدادية وأصبح حكيما وسط أقرانه، حتى الصحف يقرأها لنفسه وللآخرين وهوشاب يافع وقوى وسيصون العرض كما صان الأرض.

لم تكن تتصور أن الحكم سوف ينفذ سريعا هكذا.. لم يسألها أحد ولم يحدثها أحد، فقط مجرد همهمات وأحاديث تجمع بينهم بعيدة عنها.

أرهقتها الدموع، واختنقت كل الآمال بين الضلوع.. وأصبحت الحياة بالنسبة لها كئيبة سوداء قاتمة كتوقعات مستقبلها.

سهرت الليالى مكلومة ومحسورة، تمنت لو لم تكن قد أجرت العملية، اشتاقت لوجهها السابق القبيح، فلقد كان بالنسبة إليها درعا واقيا ولطالما حماها من شرور الناس وجبروتهم وجهها السابق وصل بها لنهاية التعليم الجامعى، ومنحها فرصة العزلة عن الأحقاد والغيرة والتسلط، . منحها فرصة أن ترى الآخرين دون أن يروها، تشعر بهم دون أن يشعروا بها، كان القبح مصدرا للسلام والأمان.

وياللعجب.. أن يصبح الجمال لا يشع الا الكآبة وإحباط الآمال. كأنه طعام فاخر، ولكنه مسمم لا أحد يجرؤ على تناوله..

كأن الجمال بات بالنسبة لها كصحوة الموت أوغفوة الحياة.

تمنت الموت.. بل بدأت تفكر فيه.

تعللت بتنظيف السلم. وراحت تهبط درجة بعد درجة مقوسة الظهر وهى تنظف السلالم الرخامية إلى أن وصلت للدور الأخير. و.. طرقت باب الحكيمة فاطمة، وما إن ظهرت لها

حتى ألقت بنفسها فوق صدر المرأة فى بكاء متواصل ونحيب مكتوم.

أدخلتها إلى الداخل وبادرتها فى لهفة :

- ماذا بك يا منال.. أخبرينى هل أصابك أحد بسوء؟

جففت مدامعها بطرف الإيشارب قبل أن تجيب :

- أنا أتعس إنسانة فى الوجود، . لم يكتفوا بسنوات العذاب التى عشتها مع الوحدة والالم، . أرادوا لى المزيد أصدروا حكمهم بإعدامى وأنا لا زلت أنبض بالحياة.. يريدون سلب حريتى وحرمانى من التعليم، . و.. أخيرا يرغبون فى تدمير كيانى بزواجى من إنسان لا أعرفه وجاهل سيصل اليوم للاتفاق على تلك الصفقة الظالمة. و..

حاولت أن تهدأ من روعها فقاطعتها بلطف قائلة :

- إهدائى يا حبيبتى.. اهدائى.. أنا حقا سمعت بكل قراراتهم ولكنى لم أسمع عن هذا الرجل القادم إليكم، . وعلى كل حال هذه فرصة مناسبة لأقول لك ما كنت أتمنى أن أسألك عنه منذ زمن طويل.

- تسألينى عن ماذا؟

وقفت وكأنها تبحث عن شيء ما، ثم إلتفتت إليها قائلة :

- كنت أريد أن أسألك دائما.. لماذا.. لماذا تركتيهم يفعلون بك كل هذا دون أن تتذمرى؟ لماذا تحملت كل أصناف العذاب فى صمت يدعو الى الدهشة والتعجب.؟! فأنت الوحيدة بينهم التى حصلت على قسط من التعليم.. فلماذا.. كنت دائما أتساءل كيف يمكن لإنسانة مثلك أن تهدر كرامتها وأن تلغى إنسانيتها بهذه الكيفية دون أدنى مقاومة منك.. فأنت..؟!!!

ولكن منال تقاطعها هذه المرة بكلمة واحدة قائلة :

- تعرفين السبب يا ست فاطمة.

سارعت المرأة قائلة : وكأنها كانت تتوقع تلك الإجابة :

- لا تحاولى أن تقنعينى بأن السبب هو ما كنت عليه قبل العملية.. فذلك منطق غير صحيح.. لقد كنت فى حالة أخف وطأة بكثير من غيرك..فهناك المئات بل الآلاف الذين حرموا من نعم كثيرة وبالرغم من هذا وصلوا إلى أعلى المستويات الاجتماعية والأدبية، . الكثير والكثير.. كفاقدى البصر أو السمع أو الحركة.. أين أنت من

هؤلاء.. أغلبهم قاوم وصارع الحياة إلى أن حققوا ما لم يحققه الكثير من الأسوياء.

صمتت برهة.. ثم أردفت :

- ولازلت أسألك.. لماذا.. لماذا يا منال؟ !!

وهنا أجهشت منال مرة أخرى فى بكاء مرير وهى تردد :

- لا أستطيع..لا أستطيع أن أخبرك بالحقيقة.. فأنا يمكننى أن أدمر كل شيء إذا ما ساندتنى شجاعتى وجرأتى لكى أبوح بالحقيقة.. ولكنى لا أستطيع.

- اذن أنت تحملت ولا زلت تتحملين برغبتك.. يبدو أنك استحملت هذا الوضع ورضيت به فلماذا تشكين إذن؟
قفزت من مكانها وراحت تردد فى هستيريا :

- أنا..أنا يا ليتنى كنت أملك الجرأة، لكنت مزقت كل من أساء إلى إربا إربا... أنا التى عاشت تتابع نبضات قلبها وتحصى أعدادها الواحدة تلو الأخرى فى انتظار أن تتوقف لأنتهى من هذا العذاب، . أنا التى تحول لعابى فى فمى إلى علقم ومرارة القهر، أبتلعها مع طعامى وفى صحوتى ومنامى، . ولكن الأمر يفوق خيالك.. ولهذا لا أستطيع أن أبوح به لأى إنسان.. بل فى كثير من الأحيان

أنساه وأتناساه مع نفسى. أنا يا ست فاطمة أشعر وكأنى موجة بحر لا تصل إلى الشاطئ أبدا، فكلما اقتربت من البر سحبتها مخالب القهر والظلم والغطرسة مرة أخرى إلى أعماق المحيط.

- أفهم من ذلك انك لا ترغبين فى أن تبوحى لى بالسبب.

- لا أستطيع.. وإن كنت أتمنى هذا.

وبلا مقدمات تحركت الحكيمة فاطمة تجاه الباب وهى تقول بلا اكتراث :

- يبدو أننى تأخرت عن عملى.. عندما أعود فى المساء سنكمل حديثنا إذا أردت ذلك.

وفى انكسار اتجهت منال إلى الباب الخارجى وهى تحاول أن تبدو طبيعية وقالت بنبرة حزينة :

- نعم للهوان بقية.. أقصد للحديث بقية.

وما كادت تخطو الى الخارج حتى فاجأتها المرأة قائلة دون أن تنظر إليها وهى ايضا فى طريقها الى الخارج :

- لماذا لا تهربين؟

وكأنها فوجئت بلدغة أفعى كانت تختبىء تحت جلدها.

صاحت بفزع متسائلة :

- ماذا قلت.. أهرب !!

و.. قبل أن تخطو فاطمة خطوة واحدة إلى الخارج توقفت فجأة.. وتوقف معها الإحساس بالزمن وبالواقع.. و.. بالحياة.

حيث تعالت فجأة صرخات مدوية وعويل كأنات الذئاب ونحيب المحترفات، واختلطت أصوات النساء مع زمجرة الرجال، . صدى لطم الخدود بات كطبول الحرب، . الأقدام تهرع لموقع الصراخ.. والأبواب تفتح من كل مكان من أجل هرولة ساكنيها إلى مصدر النحيب.

و.. أدركت منال وهى تصعد درجات السلم، بل وهى تقفز ان كارثة قد حدثت فى منزلها.. سقطت فوق الحافة الرخامية وبالرغم من ذلك واصلت الصعود والدماء تنزف من ركبتها لم تستطع الدخول إلى شقتها، الحشود تملأ المكان والعويل يكاد يحطم الجدران، . وأدركت.. أدركت ما لم يكن فى حسبانها.

أوحسبان أى أحد.

لقد مات الأب فجأة.

مات السند الوحيد، . انهار كهف الملاذ الذى كانت تحتمى بداخله، . تصدع الصرح الذى كانت تختبئ خلفه من أهوال الدنيا ومآسيها.

مات الأب.. لتشعر فى لحظة بأنها بلا سترة.. جسد عار.. ومرض بلا مداو.. شمس بلا أفق، وقمر بلا ليال.. وكأنها خطوات تائهة بلا طرق أو حوارى.

وحاولت أن تخترق الحشود لتهرع الى أبيها ولكن الأيادى تدفعها بلا اكتراث فى محاولة لمنعها من الدخول الى ابيها الراحل.

وبلا أن تدرى.. وبلا أن تدرك.. وبلا أن تعى.

تحولت إلى أى شيء إلى كيان بلا هوية.. إلى خاطر فى عقل الشيطان.. واتجهت إلى المطبخ وتناولت أقرب سكين إلى يدها.

وكالمسحورة.. صرخت بكل قوتها بل بكل جمرات اللهيب المتراكمة تحت سطح أشجانها، . بكل أنات العذاب المكبوتة فى أعماقها.

صرخت بصيحة مدوية وكأنها البرق الذى يخترق الضباب الكثيف..

صيحة واحدة قالت من خلالها :

- ابتعدوا من أمامى.. سأقتل كل من يعترض طريقى.

رأوها وهى تشهر السكين فى وجوههم جميعا.

وكأنهم أوراق خريف تتساقط من فوق الأفرع.. أو تتطاير.. أفسحوا لها الطريق، . البعض اختبأ وراء أى ساتر يحميه.

لا شيء يهم.. المهم أن الطريق أصبح ممهدا إلى أبيها.، انطلقت إلى غرفته وقد خفتت الولولة أو اختلطت مع همسات الدهشة لتصرفها.. رجال ونساء على السواء.

ألقت بنفسها فوق الجسد الصامت وهى تردد بلوعة :

- لمن تتركنى يا أبى؟!!! لا تمت يا أبى.. أجبنى يا أبى.. و.. لكن الأب مات.

ترامى إلى مسامعها بعض الأصوات وكأنها فى حلم لأشقائها وأولاد أعمامها وزوجاتهم وأقرباءهم وجيرانها. وأمها.. وغيرهم من المنتحبين والمحترفين.

.. كفى يا منال.

.. الله يرحمه.

.. ما هذا الذى تفعلينه.

.. لقد أصابها الجنون.

.. اتركى السكين الذى بيدك.

.. الله يلعنك يا شؤم.

.. سنريك بعد أن تتركى السكين.

و.. التفتت إليهم فى ذهول.. حاولت أن تنهض، وفى هذه اللحظة تراجعت كل الأجساد إلى الخلف فى هلع من المجنونة كما تصوروا.

استدارت فى اتجاههم وقالت بنبرة وكأنها تحدث نفسها :

- قتلتوه يا مجرمين.

انبرى أحدهم من وراء الحشد قائلا بصوت خفيض :

ماذا تقولين يا مجنونة؟

أجابت إلى لا شيء.. إلى لا أحد.. قائلة فى صرخات متتالية:

- نعم قتلتموه.. يا ذئاب.. يا عاهرات.. يا قوادين يا أنصاف رجال.. نعم قتلتموه يا لصوص.. يا ظالمين.

و.. فجأة اندفع شقيقها الأكبر نحوها فى محاولة لاستخلاص السكين من يدها إلا أنها تصدت له بقوة غير عادية ورشقت السكين فى صدره وهى تتهاوى معه إلى الأرض.. فى لحظة وكأن روحها تصعد إلى السماء.. أوكأنها تتطهر من ذنوب لم تقترفها.

و.. غابت عن الوعى.



٥

قد يتمكن الإنسان من مراوغة نفسه و.. قد ينلمها أيضا. كما يمكنه أن يتحمل أنات ضميره من خلال تبرير تصرفاته أو تهميش سلوكياته. وفى كثير من الأحيان قد يصدق نفسه، بل ويتعايش مع صورته الزائفة التى تبطن غير ما تفصح.

ولكن.. إذا ما وجد نفسه مجرد حقيقة عارية أمام الآخرين، وكأنه أسطر فى صفحات مقروءة لأعين من حوله. فذلك هوالانهيار المذل، خاصة عندما تكون النماذج مماثلة لأغلب المحيطين بمنال.

اختلفت كل التوقعات عندما أفاقت من غيبوبتها.

لم تجد الشرطة بعد محاولة قتل أخيها، ولا السياط متحفزة فى الأيادى لتنهال على جسدها النحيف.. لم تسمع اللعنات ولم تر السكاكين والبنادق، لم يقص شعرها أو يشوه وجهها.. لم تجد مجلس عائلة أومحاكمة ظالمة.

وجدت المستحيل.. أو ما كانت تتصوره مستحيلا.

نظرات التراضى تحيط بها، والابتسامات الهادئة تتسابق فوق شفاه من حولها، وكلمات التودد تنساب إلى مسامعها فى محاولة لكسب رضاها.

لاحظت ما هو أغرب وأهم، لاحظت بأن كل تلك المشاعر والتصرفات الطارئة.. جميعها.. مغلفة بوشاح من الخوف والترقب لم تكن تدرى بأن فى حالة هياجها قد نشبت أظافرها فى أعماق أعماقهم لتكشف عن صورهم الحقيقية، المريضة والشاذة والمجرمة، . وانشغل الجميع بستر ما يمكن ستره عن الآخر.

لم تكن تدرى بأن بثورتها تلك استطاعت أن تسترد حقها المغتصب وتصون كبرياءها المقهور.. الكل خائف...

الكل يتجنب الحوار معها، كأنهم جميعا قد ارتضوا بغلق ملف الماضى القريب.. ملف إدانتهم بلا استثناء.

إلا هى.. لم تستطع أن تطوى ذلك الملف. أو كأنها لا تريد ذلك.. فكلما سمعت صوت أحدهم، كانت تتذكر صوت الرعد الزائف الذى كاد أن يصم أذنيها.. وكلما أسقطت نظرها على واحد أو واحدة منهم، أحست بالشرر يكاد يفقأ مقلتيها.. لم تعد تدرى إن كانت مشاعرها الجديدة قد باتت كرها أم اشمئزازا، . حقدا أم رغبة للانتقام.

وبالرغم من اعتيادها فى الماضى على العزلة، إلا أن الوحدة الحالية أتعستها بشدة، ففى الماضى كانت ظروفها مبررة.. أصبح كل ما يشغل تفكيرها هو الانفصال عن تلك الأسرة أو عن مجتمعها الصغير.. تريد أن تتحرر من قيود الذكريات والإحساس بالاحتياج.. تريد الأمان لا المكان، تريد أن تبحث لخطواتها عن عنوان،

لم تجد غير الحكيمة فاطمة تلجأ إليها، والتى استقبلتها ببشاشتها المعهودة معها.. قائلة فى ترحاب صادق :

- أهلا بزهرة حديقتنا.

أجابت وهى تندلف الى داخل الشقة :

- زهور فوق القبور.

لاحقتها المرأة وقالت متعجبة :

- لماذا يا صغيرتى كل هذا التشاؤم.. فأنت جميلة الجميلات وشابة صغيرة.. ومتعلمة.. ولا ينقصك شيئا.. و..

ضحكت بطيبة ثم أردفت :

- كما أنك تخلصت من العريس الولهان.. فماذا تريدين إذن؟

- أنا أبحث عن ذاتى.. عن كيانى ووجودى.. أبحث عن منال الحقيقية التى كنت أراها فى أحلام اليقظة.. أبحث عن غد يطمس معالم ليالى الأمس، عن شمس تقبر سواد الماضى.. أبحث عن لحظة لا تسحقها مشاعر الخوف والترقب.

وهنا لم تتمالك فاطمة نفسها، وأطلقت ضحكة مجلجلة على غير المتوقع منها.. ثم قالت:

- لأول مرة لا أفهمك.. أنت تمارسين معى كل خبراتك التخصصية فى دراستك.. يا عزيزتى.. حدثينى حسب مستواى بعيدا عن الفلسفة وعلم النفس من فضلك.. و...

واصلت ضحكاتها.. ولكنها صمتت فجأة عندما قاطعتها منال قائلة :

- ساعدينى فى البحث عن عمل.

رددت الأخرى باندهاش :

- عمل !!

- أجل.. أريد أن أعمل لأتحمل مسئولية نفسى.. هذا هو الحل الوحيد.. أنا فى نهائى دراستى الجامعية ويمكننى

التوفيق بين العمل ودراستى.. ولكن مشكلتى أننى لا أعرف السبيل إلى البحث عن عمل أرجوك يا ست فاطمة ساعدينى فى البحث عن عمل.. أريد أن أرحل من هنا.. و..

قاطعتها بجدية :

- وأهلك.. اخوتك وعشيرتك !!

- أهلى.. أنا لا..

ولكنها قتلت الأحرف فوق شفتيها فجأة.. وصمتت وهى تنظر إلى المرآة فى انكسار، مما جعل فاطمة تبادرها قائلة :

- لست أدرى.. أنا أشعر أنك تخفين سرا رهيبا ولقد أحسست بذلك منذ فترة، . ولكنى تأكدت عندما سمعت ورأيت ثورتك يوم وفاة أبيك.

حاولت منال أن تستعيد اتزانها قبل ان تقول :

- لا تشغلى بالك.. فقط أريدك أن تساعدينى إن كان يمكنك هذا.

شردت الحكيمة لحظة مع نفسها.. ثم أجابت بثبات :

- الدكتور إسماعيل.

رددت منال كما لو كانت تحدث نفسها :

- الدكتور إسماعيل !!

- نعم.. الدكتور إسماعيل هو الوحيد الذى يمكنه أن يساعدك خاصة أنه قد استفسر عن حالتك أكثر من مرة كلما رآنى فى طريقه.

سارعت منال قائلة بلهفة وعتاب :

- لماذا لم تخبرينى قبل ذلك.. هذا الرجل لن أنسى فضله على.. كيف أنستنى همومى أن أذهب إليه وأشكره على مواقفه النبيلة معى. و.. .

قاطعتها بهدوء.. وقالت :

- إهدأى.. إهدأى.. غدا فى الصباح تأتين معى وتشكرينه كما تريدين.

أيها الصباح متى تأتى.. متى تقهر ذلك الليل الغامض.

هكذا رددت منال طوال يقظتها مع سكون الليل المظلم. فى انتظار شروق الصباح.

ظلت طوال ساعات الليل تحلم فى يقظتها، بل وتتمنى أن يرفق بها ملاذها الدكتور إسماعيل.. كانت اللحظات تئن وكأنها تحمل فوق كتفيها ساعات الزمن كله.

وما إن أشرقت شمس التمنى، حتى أسرعت تقفز درجات السلم لتكون برفقة الحكيمة فاطمة وهى ذاهبة إلى الأمل.. وهو فى أعماقها أمل مفقود.

وقفت على باب غرفة الدكتور إسماعيل فى انتظار الحكيمة فاطمة التى سبقتها إلى الداخل، . شعرت بكل اوردتها وشرايينها تنتفض خوفا وترقبا.

وبعد دقائق قليلة ظهرت إليها فاطمة بابتهاج .

- تعالـــــى يا منال.. الدكتور إسماعيل فى انتظارك. أحست بقدميها وكأنها تجر جبالا ذات أوتاد مثبته فى أعماق الأرض.. أو فى أعماق كيانها..

و.. دخلت.. لتجد الرجل يستقبلها بابتسامة هادئة.. متسائلا :

- أهلا يا ابنتى.. كيف حالك الآن؟. اجلسى.

تقدمت نحو المقعد المقابل له، وهى تجاهد فى استقطاب هدوئها.. وجلست هامسة :

- أهلا يا أفندم.. أهلا يا دكتور .

وبلا مقدمات فاجأها الدكتور إسماعيل قائلا :

- ما هى أخبارك.. وأخبار أشقائك وأقربائك؟

تلفتت حولها.. وكأنها تبحث عنهم.. أو عن فاطمة التى تركتها وانصرفت دون أن تدرى.. ثم همست على استحياء :

- جئت لكى أشكرك على موقفك معى.

ضحك بطيبة وأبوية.. ثم قال :

- لا.. لا.. أنت جئت تبحثين عن عمل كما أفهمتنى الحكيمة فاطمة و...

وقبل أن تجيب.. أو قبل أن تبرر مجيئها.. أستطرد هو قائلا:

- على كل حال سوف أجد لك عملا.. ولكن بشرط ألا يلهيك العمل عن دراستك، . فلقد علمت أن دراستك نظرية ويمكنك التوفيق بين العمل والدراسة •

ومرة أخرى قبل أن تجيب أو تعلق على كلماته..

وجدت نفسها مضطرة للصمت، عندما لاحظته يرفع سماعة التليفون ويدير أرقامها.. ثم قال لمحدثه دون أن ينظر إليها.

- صباح الخير يا دكتور.. أنا الدكتور إسماعيل مصطفى.. سأرسل لك فتاة مثل ابنتى وأتمنى أن تساعدها فى عمل لديك، وهى بالمناسبة فى السنة النهائية لدراستها الجامعية.. و..

صمت لحظة ثم استطرد قائلا :

- عظيم.. عظيم.. سوف أرسلها لك الآن.. وبالمناسبة هى يهمنى أمرها كثيرا.. أشكرك.. تمنياتى.

- أنت يا منال حسنة الحظ.. فالدكتور محمود مسئول كبير فى حديقة الحيوان، وأخبرنى بأنه محتاج لوظيفة صرف التذاكر لرواد الحديقة.. ويمكنك الذهاب إليه الآن.. وأخبريه بالمحادثة التى تمت بينى وبينه وهو سوف يتدبر الأمر.

وذهبت...

واستلمت عملها الجديد بعد أيام قليلة.. واختلف كل شىء.. نظرة الآخرين إليها، ونظرتها إلى نفسها، شعرت وكأنها إنسانة جديدة أو كيان آخر غير كيانها السابق.. لأول مرة فى حياتها تشعر بأن لها قيمة أو وجودًا حقيقيًا، . كانت تستمتع بأوقات عملها بقدر إحساسها بالثقة، ومن شدة تفائلها بحياتها الجديدة.

كانت تستيقظ مبكرا جدا وتصل إلى الحديقة قبل موعدها بساعة أواثنتين، ثم تقف بعيدا أسفل أفرع الشجرة الكبيرة التى تجاور المكان حتى يحين موعد بدء العمل لتنطلق والبهجة تملأ صدرها بحماس كبير.

كانت سعيدة بعالمها الجديد، وتعددت علاقاتها مع زميلات العمل والدراسة، واستطاعت بلا تدبير أن تستحوذ على كل مشاعر الإعجاب والحب والتقدير من الجميع.. ازدادت إشراقا وجمالا.. أحبت الحياة والطبيعة والناس.. الوجود والأمل. حتى أنها فى أيام عطلاتها الرسمية كانت تذهب إلى عملها، ولكنها تدخل الحديقة وتتنقل بداخلها من موقع إلى آخر، تقف أمام الطيور الجميلة، وتكاد أن تغرد معها، . تداعب الببغاوات والطواويس وكأنها تنافسها على منصة الجمال، . جميع العاملين بداخل الحديقة يعرفونها ويسعدون بها، وهى تتعامل معهم وكأنهم من عائلتها أو كما كانت تتمنى أن تكون عائلتها، حتى أن مسئولى جزيرة الشاى قد خصصوا لها موقعا متميزا هادئا يمكنها من استذكار محاضراتها كعادتها فى يوم عطلتها.

وفى ظهيرة أحد الأيام، وبعد أن انتهت من جولتها المعتادة داخل الحديقة واتجهت الى الجزيرة، وهى تحمل اوراقها وما كادت تجلس فى مكانها المخصص وبدأت تتأهب للمذاكرة إلا أنها شردت بنظرها بعيدا عن الأوراق فى اتجاه رجل قد اتخذ مكانا بالقرب من مائدتها، وجلس فى هدوء ونظارته السوداء قد استقرت فوق عينيه.

وبالرغم من أنها لم تكن تعرفه، إلا أن وجهه كان مألوفا لديها، ولهذا لم تستطع مقاومة اختلاس النظر إليه ما بين اللحظة والأخرى.

وتذكرته.. كان هناك أكثر من سبب لأن تتذكره، فهذا الرجل يرتاد الحديقة مرة كل أسبوعين على الاقل، والسبب الثانى أنه دأب على ترك ورقة نقدية، تعادل عشرة أضعاف ثمن تذكرة الدخول، لدرجة أن بعض زميلاتها اللواتى يتبادلن معها صرف التذاكر كانّ يتندرن لتصرفاته هذه، بل ويسعدن باليوم الذى تكون إحداهن أكثر حظا من زميلاتها ويكون من نصيبها أن تصرف له التذكرة لعلمهن بالمقابل الكبير الذى يدفعه. وسبب آخر جعلها تتذكره وهو أنه لم يظهر قط. بأن تصرفه غير طبيعى أو مبالغ فيه، فهو لا يهمس ولا يبتسم وكل ما يفعله هو أن يتناول التذكرة ويدفع ما يدفع وينصرف صامتا بلا اكتراث.

واكتفت منال بأنها تذكرته، وانصرفت إلى متابعة قراءاتها دون أن تهتم بوجوده بلا تعمد. ومضى وقت غير قليل، ووجدت نفسها مضطرة للانتباه نحوه، عندما تحرك منصرفا فى طريقه إلى خارج الحديقة، وهى تتابع خطواته بنظرتها، وقد ابتلعت ابتسامتها عندما راود خاطرها بأنه انصرف حزينا بعد أن غابت عنه حبيبته ولم تحضر فى موعدها.. و...

وعادت إلى متابعة مذاكرتها مرة ثانية وكأن شيئا لم يكن.

ومضت الليالى وهى تسحب من ورائها الشهور، وحققت واحدة من أغلى أمنياتها بعد حصولها على الليسانس بتفوق، وبالرغم من ذلك الحدث لم يكن له تأثير على حياتها العملية، الا أن الأمر كان مختلفا بالنسبة لحياتها العائلية، حيث ازدادت تراكمات الحقد فى قلوب نساء من كانوا يقمن معها فى نفس المنزل، واشتعل لهيب الغيرة فى صدور رجال العائلة.. أقرباء وأشقاء.

وازدادت تلك المشاعر وضوحا عندما أفصحت عن رغبتها بل عن قرارها بأنها ستواصل الدراسة للحصول على الماجستير والدكتوراه.

ولأن الحادثة الشهيرة لا زالت فى ذاكرتهم، يوم أفرغت ما فى صدرها من مشاعر نحوهم.. فتقبلوا الأمر راضخين صامتين، لا شيء سوى بعض الهمهمات السرية، التى كانت تجمع بينهم فى عدم تواجدها..

.. البنت فجرت.

.. لا أحد يقدر على الوقوف ضدها.

.. يا خسارة على الرجالة.

.. لو كان أبوها عايش لكان ذبحها.

.. عشنا وشوفنا بنت الخفير.

.. يعنى كان إخوتها عملوا إيه.

وفى الحقيقة.. كانت العبارة الأخيرة هى أصدق ما همهموا بها فلا أحد من أشقائها أومن أقربائها كان يمكنه أن يفعل شيئا حيالها، . ولكل واحد لديه أسبابه، ،. فمنهم من كانت تخرصه بالمال.. والآخر بنظرة الاحتقار والوعيد، . وثالث لا حول ولا قوة له.

من أجل هذا لم تجد منال صعوبة فى اتخاذ قرارها.

وانتشر ذلك القرار فى محيط عملها، وكان أكثر ما يسعدها بل ويزيدها إصرارا هو ما دأب العاملون وزميلاتها أن يلقبوها كلما رأوها أمامهم بالدكتورة، وكادت هى نفسها أن تصدق ذلك الاستثناء، خاصة بعدما انتقلت معها تلك الصفة إلى حيث تقطن.

الدكتورة ذهبت.. الدكتورة حضرت..

وكثيرا ما كانت تؤكد ذلك الإطناب فى حوارها مع الحكيمة فاطمة.. مرددة :

- على الأقل أنا فى طريقى للدكتوراه.. ولست مثلك يا دكتورة فاطمة.

ويضحكان.. وتزداد هى نشوة.

ولم تكن منال تدرى أن هذه المداعبة ستكون بمثابة نقطة تحول فى حياتها كلها. حيث تضامنت كل الظروف لتضعها أمام موقفا لم تتصور قط أن يحدث لها.. وكأنه قرار قدرى.

ففى ظهيرة أحد أيام عطلتها وهى تتجول كعادتها داخل الحديقة وساقتها خطواتها إلى مبنى بيت الأسد، واتجهت مباشرة كعادتها إلى الحارس قائلة بتودد :

- كيف حالك اليوم يا عم سليمان؟

- أهلا يا ست الدكتورة منال.. والله يا ابنتى أنا اليوم لست على ما يرام

اقتربت منه أكثر قبل أن تبادره قائلة :

- لماذا يا عم سليمان.. هل أنت مريض أم...

ولكنه قاطعها بلهفة وهو يلتفت للخلف تجاه قفص الأسد.. وردد :

- لست أنا المريض.. ولكنه عنتر.. أراه اليوم مزاجه متقلبا على غير عادته.. الله يكون فى عونه، لقد كبر والوهن تملك من جسده.

وما كادت تطمئنه ببعض الكلمات لعلمها مدى ارتباطه بالأسد المسن حتى توقفت على صوت من خلفها متسائلا :

- هل حضرتك طبيبة الحديقة؟

شعرت برجفة مفاجئة لم تجد لها تفسيرا، عندما وجدت نفسها وجها لوجه أمام الرجل الذى طالما كان محورا لأحاديثها مع زميلاتها.

ويتدخل الحارس قائلا بطيبة :

- البيه من زوار الحديقة الدائمين.. ربنا يكرمه دائما يحضر إلى ويمنحنى ما يجود به.. حتى عنتر يعرفه جيدا.. لدرجة أنه لم يزأر أمامه ولا مرة طوال زيارته لنا.

و.. مرة ثانية يتوجه الزائر بسؤاله لمنال قائلا بتؤدة:

حضرتك الطبيبة؟!

أجابت وكأنها تنفى تهمة موجهة إليها.. وردت بارتباك :

- لا.. لا.. أنا.. .

ولكنها صمتت برهة وهى تنظر إلى نظارته السوداء.. ثم أردفت :

- حضرتك.. ألا تعرفنى؟

ترقرقت ابتسامة هادئة على طرف شفتيه، وهويجيب :

- فى الحقيقة.. لم أتشرف بمعرفتك من قبل.

قالت بسرعة :

- أنا منال.. أقصد أنا التى تعمل فى شباك التذاكر.

همس متعجبا والابتسامة لا زالت مستقرة فوق فمه :

- أى شباك !!

رمقت الحارس بنظرة سريعة وكأنها تحثه على التدخل، ولكن الرجل الطيب كان قد انشغل بالأسد العجوز وهو يربت على رأسه برفق.. مما اضطرها لأن تعاود الحديث مع محدثها قائلة :

- أنا مندهشة حقا.. كيف لا تعرفنى.. وأنت ترانى مرة كل شهر على الأقل لمدة عام تقريبا. و...

ضحكت بشىء من الخجل قبل أن تستطرد :

- على كل حال لولا وجودى فى الشباك.. ما استطعت يوما أن ترى صديقك عنتر.

رفع النظارة من فوق عينيه.. كانت فرصة لأن ترى ملامحه.. فبدت مقلتيه بلون سطح النيل فى الصباح المشمس.

ثم انتبهت إلى نبرته وهو يؤكد معتذرا :

- أجل تذكرت.. أنت الآنسة التى تعملين فى شباك التذاكر.. فى الحقيقة تصورت بأنك طبيبة الحديقة عندما حدثك عم سليمان قائلا بأنك الدكتورة.. و...

استجمعت شجاعتها.. أو كل طموحاتها.. قبل أن تقاطعه قائلة بزهو:

- هو لم يخطئ .. ولكنى لست طبيبة بيطرية.. أنا فى طريقى للحصول على الدكتوراه فى علم النفس.. و...

همست وكأنها تتمنى ألا يسمع بقية عبارتها وأردفت بسرعة:

- أنا أحضر للماجستير الآن.

- أنا آسف.. بل أشعر بالخجل من موقفى هذا لسوء فهمى.

عاد وارتدى نظارته مرة أخرى وكأنه يفصل بين عينيه وبين لحظة شاردة مرقت فى حياته ثم قال :

- على كل حال أنا شرفت بمقابلتك.

وقبل أن تجيبه.. استدار فى اتجاه عم سليمان ودس فيه يده ببضعة جنيهات، وهويرجوه قائلا :

- ليتك يا عم سليمان تخبر الطبيب المختص بحالة عنتر وانصرف.

وكأنها فى حلم.. بل فى قصة لم تكن هى طرفا فيها.. لم تدر منال كيف وصلت إلى منزلها.. وكأن عينيه هى الكون كله التى تعيش فيه.. لم تر طوال طريقها إلى المنزل إلا البريق الخاطف الذى كان يشع من مقلتيه وكأنه أحاطها بشرنقة من جاذبية قوية لافكاك منها، . لم يعد فى سمعها إلا صوت نبراته الهادئة التى تسللت إلى أعمق أعماق وجدانها، فامتزجت بكل كيانها.

و.. وصلت إلى منزلها.. واندلفت إلى غرفتها الصغيرة المظلمة وأحكمت غلق الباب من خلفها.

وألقت بنفسها على الفراش المتهالك، وبالرغم من ذلك شعرت وكأنها تلقى بنفسها فى أحضان الأفق.

لم تنتبه للضجيج المفاجئ، المصاحب للطرقات العنيفة على باب غرفتها، ولا بصوت أمها أو لصراخ بعض النسوة :

- إفتحى يا منال.. الشرطة قبضت على أخوك وهو يحاول سرقة ركاب الاتوبيس.. استيقظى يا منال.

ولكن منال كانت متيقظة.. وفى هذه اللحظة بالذات تركت نفسها مستسلمة فى استرخاء تام للنعاس، ونامت على أمل أن تستكمل حقيقة الحلم.. أو الحلم الحقيقة.

٦

الفجر ملبد بالغيوم.. وكأنه مثقل بالهموم.

هكذا شعرت منال فى تلك اللحظة الفجرية.

كانت لا تزال فى نشوة حقيقة الحلم، أوالحلم الحقيقة. تستعيد ومضات أحداث يومها السابق، وهى فى رحاب سويعات النوم.. ولكنه.. نوم بغير جفون. وبالرغم من ذلك كانت سعيدة بأضغاث احلامها.

وتجسد كيان الرجل الغريب فى خيالها، أصبح وكأنه واقع حقيقى حتى أنها أحست بأنفاسه تختلط بأنفاسها وبأنامله تلامس بشرتها بهدوء لتسيطر عليها كلمات الشوق المتأجج، أسعدتها قبلة شفتيه الدافئة، وكأنها من فرط سعادتها، أرادت أن تؤكد أنها تعيش واقعا وليس خيالا، وفتحت جفونها لتعايش الواقع مع الحلم، وما إن فعلت حتى كادت أن تتوقف نبضات قلبها من شدة الفزع والهلع، وقبل أن تطلق صرختها مدوية وجدت نفسها مكممة بقبضة قوية وعفنة.

كانت القبضة لابن عمها، الذى فوجئت به جاثما فوق جسدها وقد استدعت الخمر سفالته من جديد مستغلا غياب أغلب أهل البيت بسبب ظروف ولدهم السارق.

وعندما استجمعت منال شتات نفسها من تلك اللحظة القاسية جحظت عيناها فى نظرة يكاد أن يكون صداها أقوى وأشد عنفا من كل صراخ الكون، لوتجمع فى لحظة واحدة.

ونفرت عروق رقبتها وبدت وكأنها سياط من ألسنة اللهيب تتحين الفرصة لتنهال على ذلك المخلوق القذر، الذى دأب على تدمير الأخلاق والتقاليد وكل أعراف مجتمعهم.

وشعر المخمور ببشاعة فعلته، وبأنها لا محال سوف تفضح أمره هذه المرة، . وستكون كارثة بلا جدال.

مما دفعه لأن يهمس متلعثما ومضطربا.. ومهددا :

- إياك أن تصرخى.. سأخبرهم بما كان بيننا فى الماضى سأقنعهم بأنك التى كنت تراودينى عن نفسك، . وسيصدقوننى فأنا الرجل، . أتعلمين ما معنى أننى الرجل فى مجتمعنا، . سيقتلونك وسأشاركهم فى قتلك.. لنغسل العار، . إياك أن تصرخى.. فأنا سأتركك الآن. ولكن..

أقسم بشرف العائلة لو حاولتِ الصراخ سأقتلك وأبلغهم بأننى قد رأيتك مع رجل آخر.

وراح يثرثر بكلماته.. بينما هى شردت فى لحظة أعمق من كل زمان حياتها، وتذكرت الرجل الغائب وماذا سيكون مصير حلمها الجميل وموقعها الاجتماعى الجديد والماجستير.. و..

عادت إلى واقعها البشع وأومأت للفاجر برأسها ولتعلن عن موافقتها بعدم الصراخ.

وبهدوء المرتجف رفع قبضته من فوق فمها، وما كاد أن يفعل حتى قفزت كالنمرة المفترسة، وهوت على وجهه بصفعة استنفرت فيها كل حقدها واحتقارها له ولواقع مجتمعها الصغير. وقالت بصيحة مكتومة :

- يا كلب سأقتلك إذا كررت فعلتك هذه مرة ثانية.. سأفضحك بل سأفضحهم هم أيضا، . سأنال منكم جميعا وأنتقم لنفسى وأطهر المجتمع منكم.. و...

ولكنه قاطعها ببلادة وهو يتحسس الصفعة بيده.. قائلا :

- لن تستطيعى.. ثم ما بالك لم تعترضى فى السابق؟!.

أجابت بحدة وهى تبصق عليه :

- لأننى لم أعد أخشى السكين، . بل لم أعد أخشاكم جميعا، وصدقنى إننى سأقتلك إذا اقتربت منى ثانية.. و...

وكأنها أرادت أن تمهد للقضاء عليه، . قالت فى تلميح :

- ألا تخشى من عقاب القدر، . وتكون زوجتك فى مثل موقفى الآن.. بل بموافقتها أيضا .

اهتزت أوداجه، وارتفع أحد حاجبيه وهو ينظر إليها شذرا وتساءل بترقب :

- ماذا تقصدين؟

وجدتها فرصة لتدميره وتدمير حياته، كما يحاول تدمير حياتها.

وأردفت قائلة :

- ألا يمكن أن يفعل أخى مع زوجتك، كما تحاول أنت أن تفعل معى.

مضت لحظات صمت بينهما.. ثم فوجئت بتراخى عضلات وجهه المنفر وهو يقول بعدها بلا مبالاة :

- تفعل ما تفعله.. يكفى وجهها القبيح وبدنها المترهل، أما أنت فأمرك مختلف.. لقد تحملتك وأنت بشعة الوجه

والجميع كانوا يجتنبون رؤيتك، . أفلا أستحق أن أستمتع الآن ببعض جمالك، . ياللك من ناكرة للجميل!

و.. مرة أخرى هوت على وجهه بصفعة أشد قسوة وهى تقول بنبرة عالية :

- يا حقير.. مؤكد أنت تعلم بحقيقة العلاقة التى بين زوجتك وأخى، . سأجعلك تندم على أنك ولدت يوما.

تراجع بعد أن استشعر جدية موقفها.. وهمس مرددا فى خوف حقيقى :

- اهدأى.. اهدأى.. سأنصرف الآن، . ولكن تأكدى أننى سأنال حقى منك يوما.

اندفعت نحوه بلا شعور فى محاولة لأن تطبق بيدها حول رقبته ولكنه تملص منها مسرعا، . وانصرف خارج الغرفة.

بينما جلست هى أو تهاوت على طرف الفراش، وقد اختلط نحيبها مع صوت مؤذن الفجر كأنهما يبحثان سويا عن الحق والعدل فى هذا الكون الفسيح.. و.، زحفت بجسدها إلى الأرض وسجدت وهى ترفع رأسها الى السماء من خلال النافذة.. ورددت فى صمت بحديث ملؤه الشجن.

.. يارب.. إلهمنى وأنقذنى من هذا الكرب.. يا إلهى أنت تعلم ما تخفى الصدور وما تنبئ به الأقدار.. فارحمنى يا أرحم الراحمين.

ماذا أفعل.. كيف أنجو من ذلك المصير المظلم.. كيف يكون الخلاص.. يا إلهى أنت تعلم أننى كنت مقهورة والآن أبحث عن ذاتى، . فاغفر لى يا ربى ما مضى وأعنى على ما هوآت فى مستقبلى.

و.. مع بشائر نور الصباح المشرق، أعدت نفسها للانصراف بعد تبديل ملابسها.. وانطلقت الى الطريق على غير هدى، فاليوم عطلة من عملها ودراستها.. ولكنها وجدت نفسها كالمسحورة تذهب الى الحديقة التى تعمل بها، . وانتظرت موعد بدء العمل اليومى.. واندلفت إلى داخلها تتجول بين الحيوانات والطيور الحبيسة، وكأنها تحسدهم على القضبان التى تحيط بهم، وتمنت للحظة أن تكون مثلهم لعل تلك القضبان التى تحيط بهم، تحميها من شرور الآخرين.

وتوالت الليالى والأيام، ما بين العمل والعطلات والدراسة واعتادت منال أن تتعايش مع واقع متعدد الوجوه

فعندما تذهب إلى منزلها تستمع إلى أقاصيص مجتمعها المؤلم الزائف، وتراقب صورهم الباهتة المقززة.. ثم تتواءم مع

وظيفتها البسيطة خلف شباك التذاكر.. ثم تعود إلى إصرارها بأن تحقق ذاتها، فى الحصول على الماجستير وربما الدكتوراه وفى خضم كل تلك المناخات والظروف، كانت تبحث عن قلبها الذى سلبه الغريب دون أن تدرى أو ربما هو أيضا لا يدرى.

كانت تنتظره فى كل عطلة وهى جالسة عند جزيرة الشاى تترقب حضوره، يوما بعد يوم، . استجمعت شجاعتها وذهبت إلى بيت الأسود.. تعمدت أن تظهر نفسها الى عم سليمان حارس المكان، ولكن الأمور لم تأت بما كانت ترغب.. وعم سليمان لم يبدى تعجبا من حضورها المنتظم، مما جعلها فى ذات ظهيرة أن تتحين الفرصة وتسأله فى شبه دهاء وتردد :

- كيف حال عنتر يا عم سليمان؟ !

فأجابها العجوز بفطرة طيبة :

- عنتر هوعنتر يا ست الدكتورة.. إذا كان مريضا أو سليما صحيحا.. فالناس تهابه وتحترم تواجده أمامهم حتى ولو كان حبيسا مقيدا وراء القضبان الحديدية.

قالت بتودد :

- أتحبه إلى هذه الدرجة يا عم سليمان !!

- بل أحترمه وأخشاه يا دكتورة.. ثم...

ومد يده داخل القضبان فى محاولة ليربت على رأس الأسد برفق ولكنه سرعان ما سحبها تجنبا لأية مفاجآت، واستطرد قائلا بفخر :

- لقد استلمت عملى فى هذه الحديقة منذ سنوات طويلة، لا أذكرها الآن، . وتزامن استلامى العمل مع وصول عنتر إلى الحديقة، . لم يكن مولودا فيها.. ولكنه أتى هدية أو مباعا.. أو أسيرا.. المهم أننا جئنا فى هذا المكان فى توقيت واحد، . ومنذ اليوم الأول لوصوله عايشت ثورته.. وبكاءه.. وزئيره.. وتوحشه وتمرده.. رأيت بعينى وهو يحاول أن يقضم تلك القضبان الحديدية بـأنيابه ويفترس اللحوم النيئة التى تقدم إليه، رأيته وهو شرس ومفتون بقوته، ورأيته وهو مقهور ومستسلم لقلة حيلته.

وبلا مقدمات وجدت نفسها تسأله بجرأة :

- وماذا عن أخبار صديقه؟!

نظر إليها عم سليمان ببلاهة وعدم فهم صامتا، مما دفعها أن تكرر سؤالها بطريقة أخرى.. وأوضح :

- أسألك عن الرجل الذى كان يظننى طبيبة الحديقة.

لاحقها عم سليمان بطيبة قائلا :

- آه.. تقصدين أحمد بيه.. و..

فرك خصيلات شعره الضئيل بأصابعه المتجعدة واستطرد قائلا :

- أحمد بيه هو أيضا يعرف كل هذا عن عنتر.. فأنا كنت دائما أخبره بقصة هذا الأسد.. ولهذا كان أحمد بيه متعاطفا دائما معه، ولا أذكر أنه وقف أمام أى أسد غير عنتر، . وكان دائما يغدق على بالمال، ويوصينى على رعاية عنتر، ... فى الحقيقة هذا الرجل كريم جدا.

ودون أن تشعر تساءلت بلهفة :

- أسمعك تقول.. كان الرجل.. وكان الرجل.. هل معنى ذلك أن أحمد بيه هذا لم يعد يحضر إليك، . أقصد إلى عنتر

- فى الحقيقة يا ست الدكتورة.. أنا لم أعد أراه منذ فترة طويلة.

وعلى كل حال الأرزاق عند الله.و...

وطالت الفترة.. وطال انتظارها .. لم تعد الأحداث تعنيها سواء ما حدث لأخيها وسجنه ستة أشهر بعد محاولته للسرقة فى

الاتوبيس.. أو للأحداث الأخرى فى حياتها اليومية، . من مهاترات وموبقات وآمال وطموحات.. وأطماع وضياع.. وسلبية أمها ومقايضتها للظروف.. وتحديها لنفسها أولا ثم للمحيطين بها ثانيا.

إلى أن جاءت اللحظة.. التى امتدت إليها فيها يد القدر، وكأنها أتت لتنتشلها من وسط كل تلك الدوامات والمفارقات وكانت متمثلة فى همسة رقيقة، شعرت بها وكأنها صعقة من صواعق السماء، ليهتز بدنها وكيانها هزا عندما ترامى إلى مسامعها نبرة صوته وهى تستذكر دروسها لتحضير الماجستير فى أحد أركان الكازينو.. قائلا :

- كيف حالك يا آنسة منال؟

رفعت نظرها فى اتجاه الصوت.. ووجدته.. أحمد ذلك الغائب الحاضر فى كيانها.. انتفضت دون إرادة وهى تقول :

- أهلا يا أستاذ أحمد.. أنا..

قاطعها برفق قائلا :

- أنا علمت من عم سليمان أن حضرتك سألت عنى.

جلست مرة ثانية وهى فى ارتباكها.. ثم أجابت :

- فى الحقيقة كنت أستفسر عن صحة عنتر، . وجاءت سيرتك بالمناسبة.

أحست بالأرض تميد من تحت قدميها، وهو يسحب المقعد الذى أمامها ويجلس عليه دون تردد.. ثم قال :

- فى الحقيقة أنا كنت خارج البلاد.. ولكن صورة عنتر لم تفارقنى لحظة واحدة.

نظرت إليه وهى مشدوهة ومنبهرة.. بل ومنفعلة فى اشتياق.. أرادت أن تصرخ متسائله.. أين كنت؟! أن تبوح بمشاعرها تجاهه التى طالما سحبت النوم من عينيها.. أرادت أن تقول الكثير.. ولكنها لم تقو الا على الصمت.. الصمت فقط.

مما دفعه أن يتساءل فى براءة :

- هل أقحمت نفسى عليك؟!

أجابت بسرعة :

- بالعكس.. أنا سعيدة جدا بلقائك.

مسح المكان حوله بنظرة واحدة.. ثم التفت إليها قائلا :

- ما أجمل أن يعود الإنسان إلى وطنه، . فأنا فى كل أسفارى المتعددة أعانى من أحاسيس الغربة والاكتئاب ، ولا يستقر لى وجدان إلا عندما تطأ قدماى أرض مصر.

حاولت أن تمسك بأطراف الحديث معه.. لعله يطول.. وقالت:

- مصر أجمل بلاد الدنيا.. كل شيء فيها ساحر.

وبلا مقدمات فاجأها متسائلا :

- هل اغتربت قبل ذلك عن مصر.. أقصد هل شعرت بأحاسيس الغربة وأنت بعيدة عنها مثلى؟

أجابت دون تحفظ :

- فى كثير من الأحيان.. قد تكون غربة الوجدان أكثر مرارة من غربة المكان.

صمت لحظة تأملها فيها قبل أن يقول :

- ياله من تعبير مخيف.. حقا ما أصعب أن يشعر الإنسان بغربة مع نفسه، . و.. ولكن لا أعتقد أن من كان فى مثل عمرك يمكن أن يصيبه ذلك الاحساس يوما، . فأنت فى عمر الزهور.

ارتسمت ابتسامة باهتة فوق طرف شفتيها.. وقالت بهدوء :

-هناك زهور تنموفى الجنان والحدائق، وبين الجحور.. و.. فوق القبور.

ضحك بتؤدة وهو يعلق :

- نسيت أننى جالس أمام فيلسوفة.. ولكنى لازلت مصرًا بأن تعبيراتك هذه نتاج قراءاتك وليست تجاربك.

- وما الفرق.. المهم أننى أدرك معناها.

قال بتودد :

- أتعلمى يا آنسة منال، بالرغم من كثرة علاقاتى وتعدد معارفى الا اننى لا يوجد لدى سوى صديق واحد.. تصورى.. صديق واحد بعد كل هذا العمر.. و...

أفلتت منه ضحكة عالية هذه المرة.. ثم أردف :

- وآه.. لو تعرفت عليه.. فهو كيان ممتلئ بمجموعة غريبة من التناقضات يعشق الحياة ولا يمسك بتلابيبها، يخشى الموت ويهيم بالمغامرة بصحته، كريم إلى حد الإسراف وحريص على ما يقتنيه من أشياء حتى لو كانت تافهة ضحوك لدرجة العبث ومتشائم لحد العبوس. الشيء الوحيد الواضح عنده هو الوفاء والإخلاص.و..

وفاجأها متسائلا :

- وأنت..

- أنا !!

- نعم أنت.. هل لديك صديقات تثقين بهن؟

ابتلعت ريقها، وكأنها تبتلع الحقيقة قبل أن تقفز فوق شفتيها.. ثم همست على استحياء :

- لا..

لم يبد تعجبا من إجابتها، وترقرقت ابتسامة مبتهجة فوق فمه وقال بحماس :

- أنا ليس عندى مانع فى أن نتقاسمه.

تساءلت بدهشة :

- نتقاسم من؟

- صديقى أيمن !!

ضحكت لأول مرة.. وهى تردد :

- وهل سيقبل تلك القسمة..؟

سارع بشغف.. وجرأة قائلا :

- إذا كانت تلك أغلى أمنية لصديقه الأساسى.. فما بالك هو..

و.. تحققت الأمنية الغالية..

وتعددت اللقاءات.. وفى كل لقاء كانت الليالى تغزل وشاح التوائم بينهما، والأحداث تدفع بكل منهما فى اتجاه الآخر.

و.. عرفت عنه الكثير.. بل عرفت كل شىء من خلاله أو عن طريق صديقه أيمن، الذى لم تجد صعوبة فى استدراجه لكى يبوح لها بكل ما خفى عن ذلك المقتحم لحياتها، أو.. من وجدت نفسها معه، عرفته رجلا تقاذفته أمواج الحياة المتمردة، عندما كانت ترفعه على قمتها تارة وسرعان ما تطويه فى باطنها المظلم، ثم ما تلبث أن تعيده مرة أخرى فوق سطح مياهها الهادئة، إلى أن استقر على شاطىء الأمان، وما كاد يلتقط أنفاسه حتى اخترقت ضلوعه طعنة الغدر لتمزق شرايين الثقة فى كل من حوله.. ولم ينج غير ذلك الصديق من وسط مجتمعه المشتت.

كل هذا عرفته من خلال أحاديثه المسترسلة عن حياته الماضية والتى أخبرها فيها كيف ألقت به الحياة يتيما وسط الليالى القاسية، كيان بلا هوية وجزع بلا جذور.. وكيف ناضل وقاتل من أجل أن يتخلص من إحساسه بغربة وجدانه وسط الآخرين.

حتى استطاع أن يشق لنفسه طريق النجاح، وأصبح من كبار رجال الأعمال المرموقين وحقق ما لم يستطع أن يحققه أغلب ممن هم فى مثل ظروفه، . وأقبلت عليه الدنيا بكل مباهجها، بالأمان والعشيرة والمال.. و.. والحب.

ولكن.. كان للقدر كلمة أخرى.

فتهاوى صرح الأمان فى لحظة زلزال لا يملك حياله شيئا، وتشت العشيرة من حوله، بحثا عن مصدر آخر للاسترزاق والمداهنة..

وتسرب المال من أرصدته حتى نضبت خزائنه تماما، . وتوجت كل هذه المآسى بهروب الحب، وتخلت عنه الإنسانة التى اختارها ليبدأ معها رحلة الكيان والتواجد، تخلت عنه دون تريث أو انتظار لأمل، هربت كمن يهرب من وباء فتاك، ولم يتبق له فى ذلك الوقت سوى الحسرة، والضعف والألم.. و.. أيمن كان فى حينها أحد الموظفين لديه الشرفاء، وبات اليوم أقرب المقربين من الأصدقاء.

ثم عادت الدنيا تقبل عليه من جديد..و.. ولكنه لم يستطع أن يعود إليها أصبحت الوحدة هى ملاذه والمرارة استقرت فى حلقه يتذوقها مع كل قطعة خبز يبتلعها أو شهيق يتسلل إلى صدره،

ولهذا كان ارتباطه بعنتر، ذلك الأسد العجوز الذى كان يتابعه من وراء القضبان.. وكان يذكره بنفسه.. ويراه وهو القوى المهيب قابعا فى مكانه لا حول له ولا قوة أمام الأطفال والعابثين واللاهيين.عرفت منال كل هذا عنه، وهى تنصت إليه وتذيب كلماته فى أعماقها وتسرى معانيها فى عروقها.

و.. أفاقت من غيبوبة أحداث ماضية على سؤاله المفاجئ :

- وأنت.. وأنت يا منال فأنا لا أعرف عنك شيئاً حتى الآن.

إزدردت ريقها قبل أن تجيب متعلثمة :

- أنا.. كيف؟ أقصد.

ولكنه قاطعها بلطف قائلاً :

- إذا كنت لا ترغبين فى اخبارى فلك هذا.. أنا لا يهمنى غير أن أراك أمامى.. وسعيدة كسعادتى بك.

- فى الحقيقة ليس عندى ما أخبرك به.. فحياتى عادية جداً كأى فتاة..ربما تكون ظروفنا أنا وأنت متشابهة فى جزئية واحدة، ولكن الأمور الأخرى لا تستحق الاهتمام.

قال مبتسماً :

- أى جزئية ! !

سارعت قائلة :

- اليتم.. فأنا ولدت يتيمة أيضاً وتركت موطنى بعد حصولى على الثانوية العامة وجئت إلى القاهرة وعملت بها لأستكمل دراستى، وأنا الآن أعيش مع إحدى صديقاتى، ونقتسم المصروفات الحياتية.

- وعائلتك !

- خالى وزوج خالتى أراسلهما من حين لآخر .. و..

ولكنها توقفت عن الحديث عندما لا حظت ظهور أيمن وهويدخل عليهما الكازينوالذى كان يتحاور ان فى أحد أركانه..

وعند اقترابه منهما صاح قائلاً :

- أنتما جالسان هنا تتبادلان بهمسات الحب وسيادتك تارك لى وجع القلب.

ترقرقت ابتسامة على فم أحمد..ثم تساءل بهدوء :

- ماذا بك أيها الصديق المزعج؟

جلس أيمن بجوار منال وبادر بمغازلتها بحاجبيه ونظرة من عينيه قبل أن يلتفت إليه قائلاً :

- عندك حق..أنا لو مكانك لكنت تركت الدنيا بما فيها من أجل لحظة تأمل واحدة فى هذا الوجه الجميل.. و..

قاطعه بحده مفتعلة :

- هات ما عندك..ثم اذهب لترى شؤونك.

عاود أيمن الالتفات إلى منال ثم استطرد :

- شئون.. أى شئون يا عزيزى..خضرة البستان التى فى مقلتيها أنستنى لماذا حضرت..ولا أعرف إلى أين ذاهب..و..؟

ثم اتجه نحوه قائلاً :

- ما رأيك يا أحمد.. اذهب وتابع كل الأمور، واتركنى أنا هنا أسبح فى عالم الأحلام.

ضحكت منال وهى تحاول أن تتخلص من توترها .. وقالت:

- لم أكن أعرف أنك شاعراً يا أستاذ أيمن.

وقبل أن يجيبها استسلم لقبضة أحمد العنيفة وهويمسك بكتفه لينهضه بقوة..ثم صاح به:

- ماذا تريد يا سمج..ولماذا أتيت؟ !

نهض معه وهو لا يزال يتابع وجه منال.. ثم أجابه بجدية.

- كنت أريدك فى كلمتين.

- تفضل يا مقلق..سر أمامى.

وسار إلى نهاية الممر بعد ان استأذنا منال للحظات..ثم توقف أيمن فجأة قائلاً بنبرة حاسمة :

- أحمد لقد تحدد موعد سفرك لإجراء العملية الأسبوع القادم..لقد أخطرنى الطبيب الفرنسى بضرورة سفرك فى الموعد المحدد والمتاح له..و..

ثم صمت برهة قبل أن يسأله :

- هل أخبرتها بحقيقة فرصتك وضرورة استئصال الورم الذى فى رأسك.

همس واجماً :

- لا..كنت على وشك أن أخبرها.

- يجب أن تخبرها الآن..ولعل هذا يكون مبرراً لسرعة زواجكما فأنت فى حاجة إليها لتكون برفقتك.

ردد وهو لا يزال شاردا :

- أخشى عليها من الصدمة، كما أخشى أن تفسر طلبى الزواج السريع بهذه الطريقة كأنه استدراج لشفقتها، أنت لا تتصور مدى سعادتها ونحن نلمح عن مستقبلنا.

- هذا يؤكد رؤيتى، وذلك أنسب لحظة لتفاتحها بالأمر.

أجاب مستسلماً :

- أهذا رأيك؟

- نعم.

- إذن انصرف أنت الآن..وأنا سأتولى الأمر.

وعاد.. إلى أدراجه حيث كانا يجلسان فى الطرف الآخر من الكازينو، ولكنه توقف مذهولاً أمام المائدة التى غادرتها منال، وراح يتلفت يميناً ويساراً..مسح المكان كله بنظراته دون جدوى.. ضم شفتيه بقوة وكأنه يخشى أن تنطلق صيحة عالية من فمه ليناديها .. انتظر عدة دقائق وكأنها دهر ولكنها لم تأت.

واضطر لمغادرة المكان بعد أن انشغلت المائدة بأناس جدد وعاد يخطو وهو مطأطئ الرأس، كأنه يبحث فوق الطريق عن سبب واحد لاختفائها.



٧

لماذا؟

تساؤل مثير ومحير، وكاد كل شىء من حولها يردده بوضوح.. بل كادت تسمع صداه من حفيف الأشجار، وزخات الندى من عليل النسمات وحبات الثرى، كادت تسمعه من تلاحق أنفاسها واضطراب نبضات قلبها.

لماذا اختفت من أمامه؟ لماذا هربت؟ بل ولماذا كذبت عليه؟!!

تساؤلات لازمت يقظتها وغفوتها.

هى نفسها لم تتوقع أن يكون ذلك هو رد فعلها وكأن قرارها بغير إرادتها..لم تدرك فى هذه اللحظة إن كانت مسحورة أو مغيبة صائبة أو خائبة..ظالمة أم مظلومة..قاسية أم خائفة.

خائفة..

ارتاحت لهذا الشعور وأرضاها ذلك المبرر.

وهى الحقيقة..أجل خائفة.

خائفة من ماض عفن، استقر فى قاع لياليها السوداء، والقاتمة.

خائفة على حاضر اختلس لحظة أمل برقت فجأة فى أفق أحلامها.

و.. خائفة لأجل مستقبل بدا فى إشراقه يفوق كل أمانيها وخيالها.

من أجل هذا..هربت.

ولم تكن تدرى بأن بهروبها قد فقدت حتى الأعتياد على الظلم والقهر ومرارة الأحزان، فقدت رغبة التمرد على واقعها، وقبر الذكريات فى باطنها .

وأصبح كيانها مفرغاً من كل شيء ..من الحواس والأحشاء، من الأوردة والدماء من الأسارير والقسمات..مفرغاً ككيان بلا ظلال إلا من شيء واحد.. هو ذلك التساؤل المثير..لماذا أقدمت على هذا التصرف معه.

الليالى تمضى والقلق يدمر مقاومتها ببطء وإصرار.. والظنون تعمق حسرتها على الأمل الذى انهار، شهران وهى تدور مع فكرها الشارد فى محاولة لاتخاذ قرار.

و.. كان القرار بالذهاب إليه والبحث عنه.

كادت خطواتها تسبق إحساسها بلهفة اللقاء وهى تصعد درجات السلم المؤدى إلى شركته.. لم تتردد لحظة فى الدخول وعند أول شخص صادفها استوقفته بثقة قائلة :

- من فضلك..أين أجد مكتب أحمد بك؟

تجاوزها الرجل بلا اكتراث وهو يجيب :

- أحمد بك غير موجود.

أكملت خطواتها فى اتجاه السكرتيرة وعاودت استفسارها :

- لو سمحت.. أحمد بك أين مكتبه؟

نظرت إليها الفتاة للحظة..ثم قالت بتأدب :

- أحمد بك غير متواجد الآن يا هانم.

سارعت تتساءل بإصرار :

- ومتى سيكون موجوداً؟

مضت لحظة متوترة قبل أن تجيبها قائلة :

- أحمد بيه.. لم يحضر منذ أسابيع كثيرة..هل فى استطاعتى أن أقدم إليك أى مطلب.

- لا.. وأشكرك.

وقبل أن تتأهب للانصراف، التفتت إليها مسرعة وكأنها تذكرت شيئاً فجأة.. وتساءلت :

- الأستاذ أيمن.. هل..؟

وكاد قلبها ينفجر عندما قالت الفتاة.

- الأستاذ أيمن موجود.. هل لدى حضرتك موعد.؟

رددت بلهفة :

- أرجوك..أخبريه بأننى موجودة.. أقصد أخبريه بأن منال تريد رؤيته ضرورى.

نهضت السكرتيرة، وانصرفت من أمامها وهى تقول :

- لحظة واحدة من فضلك.

ومضت اللحظة وكأنها دهر.

وظهرت الفتاة من جديد، وهى تشير إليها قائلة :

- ثالث مكتب على اليمين.

وما إن اندلفت إلى داخل المكتب، حتى فكرت فى التراجع، عندما هالها فخامة المكان، وتملكها الظن بأن الرجل الجالس

وراء مكتبه لا يمكن أن يكون هو نفسه أيمن الضحوك الساخر من كل شيء، أفزعتها هيبته ووقاره، وأقلقتها نظرته الصامتة وهو يتابع تقدمها نحوه.

وعند اقترابها منه، التقطت بعضًا من أنفاسها بعد أن نهض باتزان وهو مرحب بتؤده :

- أهلا يا آنسة منال..تفضلى.

وأشار إليها بالجلوس أمامه..ثم أردف بعد أن جلست :

- حمداً لله على السلامة..يا ترى ما سبب الزيارة الكريمة هذه..على كل حال أنا تحت أمرك فى أية خدمة.

حاولت أن تبتلع دهشتها من ذلك الوجه العابس وتلك الملامح القاسية والصارمة التى افترشت أسارير وجهه..ثم قالت فى تردد مصحوب بالقلق :

- فى الحقيقة..أقصد..جئت أسأل عن الأستاذ أحمد.. ولكنى سعدت برؤيتك الآن..و..

قاطعها بلا اكتراث :

- الحمد لله إننى تسببت فى إحساسك بالسعادة لرؤيتى.. لأننى لو شاءت الظروف وكنت التقيت بأحمد فلا أتوقع أن هذا الشعور سوف ينتابك.

سرت قشعريرة من التوتر فى جسدها قبل أن تهمس قائله:

- أنا لا افهم مقصدك..هل..؟

ومرة اخرى يلاحقها بفتور :

- لم يعد مهما الفهم أو التبرير، وعلى كل حال لا زلت غير ممانع لتحقيق مطلبك الذى جئت من أجله.

وبلا أن تدرى قالت فى إصرار وحزم :

- أريد رؤية الأستاذ أحمد.

نهض مرة ثانية، واتجه نحو النافذة الزجاجية، وراح يستطلع بانوراما المكان بنظراته الشاردة، ثم قال وهو يوليها ظهره وكأنه لا يرغب فى رؤيتها أو كأنه يحدث نفسه :

- أحمد انتهى...

أفلتت منها صرخة ملتاعة، وهى تقفز فى اتجاهه، مرددة :

- ماذا قلت.. أين احمد؟ ماذا حدث له؟ أتوسل إليك أن تخبرنى..هل أصابه مكروه؟

التفت نحوها بنظرة ملؤها الحزن ومسحة من الغيظ المكتوم، ثم بادرها قائلاً :

- وهل يهمك أمره إلى هذا الحد؟.. فى الحقيقة أنا مندهش من رد فعلك هذا.

- أرجوك لا تضغط على أعصابى أكثر من هذا..أستحلفك بصداقتك القوية له بأن تخبرنى ماذا حدث لأحمد؟!!

عاد ليجلس وراء مكتبه، وهو واجم، بينما تسمرت هى فى مكانها متحفزة لكلماته، ثم رفع نظرة إليها وقال بنبرة يغلفها الحزن والأسى :

- ليس قبل أن تخبرينى بسبب واحد لتصرفك الغريب فى آخر لقاء بينكما، أين ذهبت؟ بل أين اختفيت؟ ولماذا.

أجابت فى انكسار واضح :

- يعلم الله ما مررت به من أحداث وظروف..ويعلم الله وحده أن ما حدث كان يفوق كل إرادتى..الآن أخبرنى ماذا حدث أرجوك؟

طأطأ رأسه مستسلماً للموقف وأجاب :

- أحمد أصيب بشلل كامل، وهو قعيد منزله وفراشه بلا حول ولا قوة .. انهار الجبل الذى طالما تصدى لأعتى رياح الأزمات وانهار الشموخ والكبرياء أمام لحظة باغته فيها شر البلاء..و..

أسقط رأسه بين زراعيه وهو منكفئ على مكتبه، وراح مجهشاً فى بكاء مزق كل وقاره.

وتهاوت منال فوق مقعدها، وقد ألجمتها المفاجأة ولم تعد فى استطاعتها ملاحقة ارتعاشة شفتيها مع انهمار دموعها المنزرفة فى صمت كئيب.

مضت لحظات الصمت بينهما وكأنها نسمات سلام تلفح وجدانهما الملتهب، بل وكأن دموعها قد التقطت كل الأحزان المكبوتة فى أعماقها وزرفتها بغير رجعة.

وفى هدوء آمن..همست منال قائلة :

- أريد أن أراه.

رفع رأسه إليها وهو يتفحص وجهها فى صمت وكأنه يبحث عن القرار الصائب بداخل عقله، مما دفعها لأن تستطرد قائلة :

- من الذى يقوم برعايته..وكيف يمضى أوقاته فى هذا القيد المرعب..؟!!

- لقد أتيت له بمديرة للمنزل تتولى رعايته..إنه يعيش من أجل أمل واحد دائماً ما أعززه فى أعماقه.. الأمل فى المرحلة التالية من علاجه. الطبيب الفرنسى وعد بإجراء جراحة ثانية.

عادت وقالت بإلحاح :

- أريد رؤيته.. أرجوك يا أستاذ أيمن لا تقهرنى برفضك.

تململ لبرهة.. ثم أجاب مستسلماً :

- لا بد وأن أستشيره أولاً..امنحينى وقتا كافياً لكى أمهد له الأمر.. وليكن أسبوعاً.

همهمت بانكسار قائلة :

- أنا لا أملك غير الرضوخ.. سأحضر إليك بعد أسبوع و.. نهضت منصرفة من أمامه.

أسبوع سقطت لياليه من حسابات الزمن..فترة من العمر بلا ماض أو حاضر، وكأن كل حواسها قد رحلت عن جسدها محلقة وباحثة ومنتظرة يوم اللقاء..مجرد جسد يتنقل وسط الآخرين بلا وعى ولا هدف.

ولكن الليالى السوداء تأبى أن تنقضى. فاجأها ابن عمها فى ليلة بلا قمر، وقد جحظت عيناه بومضات الشر، وقبل أن تتأهب للزود عن نفسها بادرها قلائلاً بتبجح:

- اسمعى يا بنت الناس، لقد تحملت جفاءك أكثر من اللازم، فإما تعودين كعهدك معى، وإما بشرفى سأتولى بنفسى

فضح أمرك وأخبر الجميع بما كان بيننا بناء على ملاحقتك لى.

تقوست فوق فراشها وكأنها تطحن فى أحشائها كل آلام القهر والذل والغضب.

وعلى غير المتوقع..أجابت بهدوء أشبه باللاوعى :

- أى شرف هذا الذى تتحدث عنه، اذهب أولاً احم عرضك الذى ينهشه أخى مع زوجتك طوال فترة غيابك..و..

كاد أن ينفجر رأسها غيظاً ودهشة أمام استقباله لكلماتها وهويطيل النظر إليها صامتاً..ثم فاجأها باستدارته منصرفاً وكأنه لم يسمع منها شيئاً.

وبقدر حيرتها من تصرفه بقدر ما تسلل إلى صدرها احساس بالارتياح لانتصارها عليه وإذلاله.

وتلاحقت الأحداث من حولها بلا مقدمات، وكأن الواقع يرغب فى فرض كلمته قبل انقضاء مهلة الاسبوع، فعند عودتها من عملها فى اليوم الرابع فوجئت بأخيها ينتظرها وسط الردهة الصغيرة، وقد ارتخت عضلات فكيه التى طالما كانت تميز ملامحه، وراودها شعور للحظة بأن كارثة ما سوف تحدث بلا جدال.

اقتربت ببطء فى اتجاه غرفتها ولكنها تسمرت فجأة عند سماع صوته وهو يأمرها :

- انتظرى يا بنت.

وانتظرت البنت... أحست بقدميها لا تقويان على حمل جسدها ولكنها حاولت التماسك وهى تلتفت إليه فى رعب مكبوت..واقترب منها قائلاً :

- أعلمت ما حدث.؟

أشارت برأسها بالنفى دون أن تتفوه بكلمة واحدة..مما دفعه لأن يستطرد :

- ابن عمك سليم طلق زوجته، وسافر بها مع أولادها إلى البلد.

ابتلعت ريقها مع رجفة اضطرابها قبل أن تهمس متسائلة :

- ولماذا..؟

استدار ليجلس على الأريكة المتهالكة بطرف الردهة، ثم أجاب بلا اكتراث :

- هما كانا دائماً على خلاف، ..وعلى كل حال ليس مهماً السبب فامرأه تذهب وأخرى تأتى.

بدأت تتحرك من جديد فى اتجاه غرفتها وكأن الأمر لا يعنيها ولكنها ما كادت تفعل حتى استوقفها بحزم :

- أنا لم انته من كلامى معك.

نظرت إليه بنظرة ملؤها الحقد والكراهية، بينما وضع شقيقها ساقا فوق ساق قبل أن يبادرها ببرود :

- أنا كنت أعلم منذ زمن بأن ابن عمك كان يريدك.

- لا أفهم ماذا تقصد؟

- قصدى واضح ابن عمك سيعود من البلد بمفرده.. من الذى سيقوم بخدمته..وهو أولى بك من غيره، إنت من دمه ولحمه.

واندفعت الدماء إلى رأسها وبدت وجنتاها كجمرات اللهب، وقبل أن تنطق بحرف لا حظت ظهور والدتها من الغرفة المقابلة والتى اتجهت مباشرة إلى جوار ولدها، وكأنها تعلن موافقتها الضمنية على كل ما يقوله

رددت فى داخل أعماقها..اتفقتما إذن.. بصمته عن جريمتك مع زوجته، مقابل أن تزوجنى إليه ثم همهمت بحشرجة قائلة :

- هى مقايضة إذن.. الصمت مقابل الزواج.

رمقها بنظرة بلهاء ثم نهض بتحفز تخفى وراءه عدم فهمه لكلماتها وردد بتهكم :

- وحياة والدك.. لا داعى للكلمتين اللى انتى حفظتيهم فى مدرستك.

لا حقته بشىء من الجرأة..وقالت :

- مدرستى..أى مدرسة التى تتحدث عنها..أنا أستعد للحصول على الماجستير.

ضحك بسماجة.. ثم قال :

- ماجستين إيه..الماجستين بتاعك هذا لن يسترك..ولن يتكفل بحياتك..ثم من قال لك إن ابن عمك سليم سوف يوافق على الماجستين بتاعك هذا.

أدارت رأسها فى اتجاه والدتها، ونظرت إلى عينيها بعمق، ولاحظت رضاءها الصامت وصمتها الرافض..و..

انتبهت على صوت أخيها من جديد وهو يقول بحدة :

- الخميس القادم كتب كتابك..وإعملى حسابك إنى بلغت أعمامك وأخوالك فى البلد بهذه المناسبة .. ثم..

- لوح بيده مشيراً إلى الغرفة الثالثة وقال :

- وكفى أنه سيصبح لك حجرة لها باب بدلا من الستارة وسرير كبير ودولاب من الخشب الزان.

وقبل أن يسترسل فى المزايا التى يعددها من هذا الزواج، لم تستطع منال التحكم فى رغبتها الشديدة فى الانصراف من أمامه.

وانصرفت إلى داخل غرفتها وجذبت الستارة لتحول دونهما ورؤيتهما.

أحست وكأنها تراقب الزمن، فعند شروق الشمس تستعجل ظلام الليل، وعند سطوع القمر تشتاق لملامح الفجر.

و.. مضت الساعات كالليالى.. والليالى كالسنين.

وحان موعد اللقاء.

جلست بجوار أيمن فى سيارته كالدمية الصامتة وهما فى طريقهما إلى منزل أحمد.. لا تفكر فى شىء، بل فقدت القدرة على التفكير، مشاعرها تحجرت فى وجدانها، عيناها تنظر إلى لا شىء وكأن الوجود من حولها قد تحول إلى كتلة من الضباب الرمادى، باتت بلا ماض ولا حاضر.. بلا مستقبل.

انتبهت على صوت أيمن، بل أيقظت من غفوتها عندما قال بعد أن أوقف السيارة :

- تفضلى يا آنسة منال.

نظرت حولها للحظة بهرها جمال الطبيعة والأشجار الكثيفة التى تحيط بالمنطقة، واشتعل انبهارها من روعة ما استقبلته عيناها داخل الفيلا، اقتحم ذاكرتها المرة الوحيدة التى ارتادت فيها السينما فى صباها، وشعرت أنها اخترقت الشاشة الفضية إلى واقعها الجديد، نفس الرجل الذى يرتدى القفطان الأبيض والحزام الأحمر، ومديرة المنزل الصارمة والتحف والأثاث البديع والمساحات العريضة.. و.. ورهبة المكان.

أشار أيمن إليها قائلاً :

من فضلك انتظرى قليلاً حتى أبلغه بحضورك.

جلست بل غاصت فى المقعد الوثير دون أن تتفوه بحرف واحد.

ومضت الدقائق وكأنها تنتظر حكم الإدانة وكاد قلبها أن ينخلع من وسط أضلعها عندما ظهر أيمن مرة أخرى مردداً :

- تفضلى.. أحمد فى انتظارك.

تصلبت فى مكانها دون حراك وهى تنظر إليه وكأنها تتوسله بألا يتركها بمفردها فى هذه اللحظة العصيبة.. وقبل أن تفكر فى

كيفية التلميح له بهذا المعنى أو التوسل، استطرد متوجهاً بكلماته لمديرة المنزل قائلاً :

- أوصلى الهانم إلى غرفة أحمد بك.

سارت خلفها مستسلمة، وكل قطرة دماء فى عروقها تتسابق مع مثيلتها فى اضطراب شديد، ونبضات قلبها تتلاحق بسرعة مرتجفة وهى تصعد درجات السلم الداخلى المؤدى إلى غرفته.

وأمام الغرفة توقفت المرأة..ثم التفتت نحوها قائلة بتأدب :

- تفضلى يا هانم.

وانصرفت.. تركتها كمن يلقى بإنسان على غير طواعية فى أعماق أمواج البحر وهو يجهل السباحة.

وبيد مرتعشة فتحت باب الغرفة بحذر كبير، وما كادت تخطو خطوة واحدة حتى تسمرت من جديد عندما انتابها إحساس بأنها تقف أمام قاعة واسعة، ولكنها استطاعت أن تحدد موقعه وهو مستلق فوق فراشه عند الطرف الآخر من الغرفة..أو القاعة كما تصورتها، ودبت الحياة فى أوصالها عندما ترامى إلى مسامعها صوته الحنون الدافئ وهو يقول :

- أهلا يا منال..أنا آسف كنت أتمنى أن يكون فى مقدورى استقبالك..ولكن.

ولكنه توقف عن الحديث أمام تصرفها المفاجئ، حيث انطلقت بلا تردد مسرعة إليه وألقت برأسها فوق صدره الساكن وراحت فى بكاء مرير.

وبحنان بالغ تلمس شعرها بيده ثم همس :

- لماذا أختفيت.. لماذا رحلت؟

ومن وسط تشنجات مدامعها رددت :

- لن يحدث مرة ثانية.. لن أتركك أبداً.

ترقرقت فوق شفتيه ابتسامة ذابلة قبل أن يقول :

- لقد تأخرت وفات الميعاد ولم يعد الموقف فى صالحى، القدر قرر أن يحرمنى من كل شىء حتى من لحظة أمل.

عادت تردد وهى لازالت تخفى وجهها فى صدره :

- لا تقل هذا.. لقد جئت إليك ولن أبرح مكانى هذا، حتى ولو رفضت أنت بقائى.. لقد تركت كل شىء خلفى، سأترك كل ما كنت أسعى إليه، فأنا لا أريد سواك فى دنياى تلك، لن أعيش بعد اليوم لحظة واحدة بدونك.

- أشكرك يا منال على تعاطفك معى، ولكن الأمر الآن بات مختلفاً.. فأنا لم أعد مفيداً فى أى شىء، أنا لا أملك غير

الانتظار.. انتظار اللحظة التى يقررها القدر مرة أخرى لرحيلى من الحياة كلها.

رفعت رأسها إليه والدموع تفترش وجهها بأكمله، وقد اشتعل بياض عينيها وهى تقول بإصرار كبير :

- بقائى من أجل نفسى وليس من أجلك..أقسم لك إننى لن أستطيع فراقك لحظة واحدة بعد اليوم..و..

صمتت برهة وهى تعتدل فى جلستها..ثم أردفت بحذر :

- أم إنك لا تريدنى حقا..وأصبحت لا تطيق وجودى بجوارك.

أجاب بانكسار :

- أنا أرفض بأن يكون موقفك هذا دافعه الشفقة.. و..

قاطعته بلهفة :

- بل الحب.. الحب الذى سكن قلبى لأول مرة فى حياتى.

- والناس.. وأهلك ماذا سيقولون؟!

أجابت وهى تتحسس وجنتيه بأطراف أصابعها :

- أنت كل وجودى.. أنت أهلى وعالمى كله.. و..

وقبل أن يعقب على كلماتها انتفضت مسرعة إلى خارج الغرفة، لتجد أيمن يقف على مقربة من الباب فصاحت به مهللة:

- أستاذ أيمن المأذون تأخر لماذا لم يحضر للآن؟

وعادت مسرعة فى اتجاه أحمد المستسلم وألقت بنفسها مرة أخرى فوق صدره.. قائلة بصدق :

- أحبك...

وأغمضت جفنيها.. بلا دموع.



٨

عرفت الحب...

الحب يأتى ولا يستدعى، يرفرف بأجنحة السعادة فى سماء البشرية ثم يهبط من عليائه ليستقر فى القلوب التى اختارها.

والحب اختار قلبها، تشعر بأن الوجود كله منقسم إلى واقعين لا يضم غيرها وأحمد

عرفت الحب...

عرفته مشيئة قدرية لا تؤتمر من أحد، ولا يمكن لكائن ما كان أن يتنصل منه أو يسعى إليه.

عرفته منفرداً فى قراره.. جبار فى حنانه.. و.. عطوف فى عذابه.

كانت لا تمنح الفرصة للحظة من لحظات الزمن تمضى دون أن تعبر له عن صدق حبها، لم تشعر قط بأية تضحية من أجله بل التزاماً حقيقياً تجاهه بكل الرضى والولاء.. قررت التوقف عن استكمال دراستها للحصول على الماجستير، من أجل أن تتفرغ بكل طاقاتها لرعايته، اقتربت منه لحد الذوبان فيه ولم

تعد تسمح لأحد غيرها أن يتولى ولو قدرا من شئونه، وأصبح هو كل شيء فى حياتها وباتت هى حياته نفسها.. لم تهتم بأى شيء حولها سواء من ملاحظات أيمن الساخـرة لهذا الاهتمام المبالغ فيه، ولا لنظرات الغيرة الصامتة من عين مديرة المنزل التى شعرت بأن كل صلاحيتها قد سلبت منها فجأة.

هدف الجميع الحب فقط...

وكم كانت لهفتها عليه، وانشغالها من أجله عندما قررت أن تذهب للحكيمة فاطمة فى مقر عملها لتتقصى ردود أفعال أهلها بعد اختفائها المفاجئ، كما تمنت لو استطاعت أن تستدعيها إلى الفيلا حتى لا تتركه بعض الوقت وحيداً، ولكنها كانت تعلم أن ذلك مستحيل ولهذا قررت الذهاب إليها بعد أن اختلقت الأعذار والمبررات لكى لا يشعر بحقيقة الأمر.

وهناك أخبرتها فاطمة بأن أهلها أشاعوا فى المنطقة بأنها سافرت إلى بلدتهم فى أجازة طويلة، ولم تستطع أن تستوضح منها موقف أهل البلد وكذلك ابن عمها وعائلتها من تصرفها الغامض.

وبدت كما لو كان فى غير حسبانها ذلك الاستفسار المفاجئ الذى بادرتها به فاطمة.. متسائلة :

- ولكنك لم تخبرينى حتى الآن.. لماذا هربت؟ أقصد لماذا تركت المنزل بهذه الصورة؟!

أجابت بعد لحظة تردد خاطفة :

- تزوجت

- ماذا ... تزوجت ... متى وكيف.. و.. من يكون؟!!

قالت بتحد :

- إنسان أشفق عليه من أن يرى عائلة مثل عائلتى..رجل يصعب عليهم تقديرة حق قدره.

ابتمست المرأة بخبث..ثم قالت :

- لا أفهم ما تعنيه..هل تقصدين أنه على أعلى درجة من الوسامة ومفتول العضلات وساحر النساء.

لم تكترث لسخريتها وأكملت حديثها بثقة :

- رجل له كل صفات الرجولة الحقيقية، زاده الكبرياء ولا يعرف لغة السفهاء.. الشموخ يسبق تصرفاته والضمير يحدد خطواته.. رجل تشعرين بجانبه بالأمان، لا بالمهانة والحرمان..و..

ولكن فاطمة تقاطعها قائلة بدهشة :

- كفى.. كفى.. أراك تتحدثين عنه وكأنه من عالم آخر.

وكأن الحديث عنه قد استطاب لها فسارعت قائلة :

- نعم هو من عالم آخر..عالم لم أجد فيه الخسة والوضاعة.. لم أر فيه نظرات خائفة من ملاحقة الشرطة، ولا استباحة الأعراض ومذابح للضمائر.. عالم كله وفاء وانتماء، تضحية وفداء.. عالم لا يعرف غير الحب والصدق.. لا الكذب والفسق.

إزداد اهتمام وفضول المرأة وهى تتساءل :

- من هو يا منال؟

أجابت بفخر :

- هو زوجى.

- أعلم أنه زوجك..ولكن أقصد من يكون؟

لم تهتم لسؤالها، ومدت يدها إليها بورقة صغيرة..وقالت :

- هذا رقم تليفون الشركة..لا تتصلى بى إلا للضرورة القصوى..و..تأهبت للانصراف..ولكن فاطمة تستوقفها قائلة :

- هل أخبرهم بزواجك..أقصد هل أخبرهم عن لقائى بك؟

رددت بلا اكتراث :

- سيان عندى..

وانصرفت فجأة..كما ظهرت فجأة .

وكأن الأقدار أرادت أن تكافئها على مشاعرها النبيلة تجاه زوجها فادخرت لها مفاجأة سارة عند عودتها إلى المنزل، بالرغم من أنها قد ظلت طوال رحلة عودتها مضطربة الفكر وهى تبحث عن مبرر مقنع تخبره به إذا ما سألها عن سبب غيابها.

ولكنها فوجئت بوجود أيمن الصديق وهو يجلس على طرف فراش أحمد وقد ابتهجت أساريرهما، وكعادته الساخرة نهض من مكانه بمجرد رؤيتها وقال متأهباً للانصراف :

- ها قد عاد ملاك الرحمة يا صديقى المحظوظ.. وطبعاً لامكان الآن للشيطان المنحوس.

ومن خلال ابتسامة هادئة ردد أحمد قائلاً :

- لم أكن أعرف يا أيمن أنك على هذا القدر الكبير من الذكاء.

أجابه وهو فى طريقه للانصراف من الغرفة :

- إذا لم تودعنى منال هانم بابتسامتها الجميلة سوف أعود لغبائى وأرفض الانصراف.

لم تتمالك نفسها وأطلقت ضحكة عالية مما دفعه لأن يستدير إليها وهو يقف عند نهاية الغرفة ثم قال مدعياً الجدية :

- إلى هذا الحد يسعدك اختفائى... لقد طالبتك بإبتسامة لكى انصرف من الباب.. ومعنى أنك تطلقين هذه الضحكة الكبيرة بأن أكون مطالباً بإلقاء نفسى من الشباك.. وانصرف فعلاً.

انتبهت لأحمد وهو يهمس إليها بحنان :

- اجلسى يا حبيبتى.. يا ليتنى أستطيع أن أصف لك مدى إحساسى بمرارة الوحدة وأنت بعيدة عنى تلك الساعات القليلة.

اقتربت منه وهى تمسك بكف يده..ثم قالت بدلال :

- ألم يعوضك وجود صديقك بجوارك؟

أجاب بنبرة متأثرة :

- لو اجتمعت البشرية كلها حولى لا يمكن أن تعوضنى لحظة واحدة من وجودك بجوارى.

التصقت بصدره وهى تتمتم قائلة :

- يعلم الله كم أحبك.

وبلا مقدمات أزاح صدرها قليلا..ثم قال وهو يرمقها بسعادة:

- عندى لك خبر سار.

- ما هو يا حياتى.

- لقد اتصل بى الطبيب الفرنسى وحدد موعد العملية الثانية خلال الشهر القادم وبشرنى بنسبة نجاحها الكبير.

وفى لحظة هستيرية، اختلطت دموعها بقبلاتها، وهى تارة تقفز بجواره وأخرى تعود إلى منتصف الغرفة راقصة كالفراشة.

ومضت الليالى وهى لا تحمل فى رحابها إلا السعادة.. كان للحب أنفاس ليس من العسير أن يستنشقها كل من يقترب من هذا المنزل..حتى المشاعر كادت أن تكون مجسدة وكأنها كيانات ذات معالم محددة..الحب يسبق حوارهما، والحنان يهيم فى نظراتهما، ولهفة الأشواق تتناغم مع نبضات قلبهما.

لا شىء كان يعكر هذا الصفاء الروحانى غير التذمر الصامت الذى كان واضحاً من نظرات مديرة المنزل، فالمرأة لم تستطع أن تغفر لها بأنها تسببت فى تقليص صلاحيتها فى

المنزل..لم تستطع أن تحبها بالرغم من معاملة منال الحسنة لها..فبدت وكأنها صوت مزعج فى لحن هادئ جميل، أو كأنها خطوط قاتمة وسط لوحة زيتيه رائعة التفاؤل.

وبالرغم من هذا النشوز الغريب كانت منال لا تبدى أى اهتمام بملاحظتها. فلقد كان الحب يحتويها بكل كيانها.

ولكن..

الواقع ليس دائماً صديقاً حميماً بل أحياناً يصبح عدواً لدوداً.

والحياة لها أقنعة كثيرة، قد تكشف ابتسامتها للبعض وقد تكشر عن أنيابها للبعض الآخر..كالشمس عندما تدفئ أو عندما تميت، والنسمات قد تتحول إلى أعاصير والليل عندما يختفى عنه القمر، والخريف حين يفترس أوراق الشجر.

هكذا شعرت منال، عندما استيقظت من نومها وهى فى غرفتها على صوت غير طبيعى كان كفيلاً أن يفيقها من غفوتها، دارت بعينيها فى أرجاء الغرفة وهى مستلقية على الفراش، تبحث عن سبب الصوت المفاجئ من خلال بصيص الضوء الخافت الذى يشع من الأباجورة التى بجوارها، تململت بحركة بطيئة بعدما أوحت إلى نفسها بأن ما حدث كان كابوساً طارئاً..وما كادت تغلق جفنيها من جديد تأهباً للنوم مرة ثانية،

إلا أنها شعرت بقشعريرة عنيفة تسرى فى جسدها عندما لاحظت تحرك شيء ما خلف الستارة المدلاة فوق نافذتها المفتوحة، ارتفعت برأسها قليلاً وتأكدت بأن هناك أمرا غير طبيعى خلف الستارة، أرادت أن تصرخ بل حاولت ولكن الصرخة انحشرت في حلقها..نبضات قلبها كادت أن تتوالى فى الانفجار خوفاً وهلعاً..أصبحت كل أمانيها أن تصل إلى مفتاح النور لتضى الغرفة، شعرت بأن قدميها قد بُترتا عن جسدها وهي لا زالت تركز نظرتها نحو النافذة وتزداد تأكدا بأن هناك شيئاً مريباً خلفها.

وقبل أن تستجمع قواها للصراخ، تحرك الشبح من وراء الستارة وظهر مجسداً وهو يقول بصوت خافت :

– كيف حالك يا منال؟!!

رددت فى همهمة مكتومة.

– من.. من أنت؟

اتخذ خطوة واحدة نحوها بحذر..ثم همس من جديد

– لا داعى للخوف..أنا أخوك.

قفزت بلا وعى فى اتجاه مفتاح النور وأضاءت الغرفة، وما كادت أن تتبين ملامحه حتى صاحت منزعجة :

- أنت.. أنت.. متى خرجت من السجن؟!! وكيف أتيت إلى هنا؟!!!

اقترب شقيقها الأصغر منها بهدوء فى محاولة لطمأنتها ثم قال بتودد :

- أهكذا يكون استقبالك لأخيك الغائب.

- لازلت أسألك كيف أتيت إلى هنا.

دار برأسه يستطلع المكان بانبهار شديد ثم التفت إليها قائلاً ببرود :

- يبدو أنك وقعت واقفة يا بت.

تحول اضطرابها إلى غيظ مكتوم..وقالت :

- إنتق الفاظك يا متشرد..ولا زلت أسألك كيف عرفت مكانى وكيف دخلت إلى هنا؟

ضحك ببلادة قبل أن يقول :

- أنسيت أننى نشال.. هل نسيت أيضا مهنتك القديمة.

- اخرس يا كلب، إذا استمر حديثك هكذا، وإذا لم تذكر لى كيف عرفت عنوانى؟! سوف أتصل بالشرطة لتأتى وتأخذك يا متشرد.

- اقترب منها بخطوة ثانية.. وردد :

- لا. لا.. داعى يا أختى الحبيبة، المهم عندى أن تكونى سعيدة والأهم من هذا أن تنظرى إلى بنظرة عطف وحنان، إنت تعلمين حقيقة حالتى ولا أطلب غير مساعدتك لى ببعض المال..وأعدك بأن سرك لن يعلمه أحد سواى.

- أى سر يا لص.. فأنا زوجة لرجل محترم.. ويمكننى أن أعيدك إلى السجن بل ، وأدمركم جميعاً.

- اتفقنا..

- اتفقنا على ماذا؟

أجاب بإصرار :

- بأن يكون المبلغ على قدر ذلك الزوج المحترم.. وإلا..

قاطعته بحذر :

- وإلا ماذا.. أقسم بالله أنا لن أتردد فى قتلك إذا فعلت ذلك

- ارتفع صوته دون وعى وهو يقول صارخاً :

- تقتلينى أنا يا بنت الكلب..و..

وما كاد يتأهب للهجوم عليها حتى توقف فجأة مذعوراً عندما سمع طرقات خفيفة على باب الغرفة، وصوت المرأة مديرة المنزل وهى تردد :

- هل تحتاجين شيئاً يا منال هانم؟!

ومضت لحظات صمت كالسنين بعدها استطاعت أن تستجمع توازنها وأجابت باضطراب ملحوظ:

- لا شيء.. وأشكرك.

ثم اقتربت منه هامسة:

- أرجوك انصرف الآن وسوف أتصل بك قريباً.

- متى وكيف..؟!

- فى أقرب وقت.

إزداد جرأة وقال بحزم :

- حددى لى موعداً

- الأسبوع القادم.. بعد أربعة أيام سأخبر فاطمة بالموعد.

رمقها بنظرة تحذيرية قبل أن يقول :

- إذا لم تحضرى فى الموعد المحدد.. ستدفعين ثمن غبائك.

وفى ثوان اتجه إلى النافذة وقفز من خلالها منصرفاً.

أسرعت وأحكمت إغلاق النافذة بعد انصرافه، ثم إستلقت فوق الفراش وأغمضت عينيها وكأنها تهرب من صورة الماضى الذى تجسد عند مجىء شقيقها.. أو كأنها تستعيده فى ذاكرتها.

.. يا إلهى!! ما الذى أقدمت عليه فى حياتى حتى أثير غضبك على... أى شر وأى افتراء كنت أنا سبباً فيه يوماً.. أنت وحدك الذى يعلم كم قاسيت وكم ظلمتنى الليالى.. وأنت وحدك الذى أطمع فى رحمته لإنقاذى من هذا الماضى اللعين..و..

راحت تتساءل فى صمت:

.. ماذا أفعل؟ وكيف سيكون موقفى أمام أحمد؟ لوعلم بالأمر.. إذا أخبرته سأصبح فى نظره مخادعة وكاذبة.. وإن لم أخبره وعلم بالأمر سوف أصبح خائنة ومتمردة.. ماذا أفعل؟

انتبهت على ضوء الفجر بعد أن اخترق ظلام الليل.. الليل الكئيب الذى تسلل بقتامته إلى داخلها فتاهت عن نفسها وسط ظلامه.

الإرهاق تمكن من جسدها مثلماً تمكن من فكرها.. تململت فوق الفراش بتثاقل بعد أن رحل النوم عنها دون أن تدرى. اتجهت إلى خارج الغرفة فى طريقها للاطمئنان على زوجها،

ولكنها توقفت بعد عدة خطوات عندما لاحظت ظهور المرأة والتقت نظرتهما فى صمت رهيب كادت أن تفضحه العيون.

شحذت ثقتها قبل أن تقترب منها وقالت بلا مبالاة :

- ماذا كنت تريدين..ولماذا طرقت باب غرفتى فى مثل هذه الساعة.

ظلت المرأة على صمتها وهى تطيل النظر إليها..ثم أجابت بتهكم مستتر :

- وهل الاطمئنان عليك أصبح مشكلة يا منال هانم؟

- المشكلة إنك تطمئنى على فى مثل هذا الوقت..لقد كنت نائمة.

لا حقتها الأخرى بشىء من الجرأة وقالت :

- أعرف أنك كنت نائمة.. ولهذا هرعت إليك.. فيبدو يا هانم أنك كنت تعانين كابوساً مزعجاً مما جعلك تتحدثين بصوت مرتفع كدت أتبين معانيه بوضوح.

وفى حزم غير متوقع قالت :

- على كل حال لا تكررى هذا الفعل مرة ثانية..وعندما أكون فى حاجة إلى خدماتك سوف أستدعيك بلا تردد..و..

ورمقتها باشمئزاز ثم أردفت :

- وأعتقد أن ذلك من طبيعة عملك هنا كخادمة.

وتركتها متجهة إلى غرفة أحمد..لم تسمع كلمات الترحيب التى أمطرها بها عند رؤيتها ولم تحدد ماذا أجابت عليه..فكان حوارها مع المرأة قد سيطر تماماً على تفكيرها، ولكنها اضطرت للانتباه إليه عندما بادرها قائلاً :

- ماذا بك يا حبيبتى.. الإرهاق واضح تماماً فى عينيك..كيف قضيت ليلتك..؟ يبدو أنك لم تأخذى قسطاً وافراً من النوم.

تمتمت وهى تحاول إخفاء ارتباكها :

- لا تخش على يا حبيبى..فأنا كنت أفكر فى حبك طيلة ليلتى الماضية ولا أعرف كيف أسعدك.

- سعادتى يا غالية بقربك منى..فقط تمنى من الله أن تنجح العملية القادمة حتى أتمكن من رد جميلك العظيم.

أجابت وقد بدأت البهجة تدغدغ مشاعرها :

- أى جميل يا زوجى العظيم..فأنا كل ما أرجوه من الله أن يتقبل دعائى من أجل شفائك.

ابتسم بحنان وهو يقول :

- أنا أعرف كم ضحيت من أجلى..يكفى أنك تركت دراستك وتفرغت لرعايتى..ويكفى أنك اتخذت قرار زواجنا بهذه الطريقة دون أن تستشيرى خالتك وزوجها..ويكفى أنك..

- كفى..ما هذا الذى تردده يا أحمد يجب أن تعلم بأن لا دراستى ولا أقربائى يمثلان بالنسبة لى لحظة واحدة من حبك العظيم الذى أضمه فى قلبى من أجلك..و..

اقتربت من جبهته ولا مستها بشفتيها ثم قالت ضاحكة :

- والآن دعنى أذهب يا غالى لأتابع شئون المنزل.

وما كادت تخطو خطوة واحدة فى طريقها إلى الانصراف حتى توقفت فجأة عندما قال :

- دعى هذا الأمر لمديرة المنزل .. فأنت.

فقاطعته بحسم :

- لا..أنا هنا المسئولة عن كل شىء.

لم ينتبه لعصبيتها..وأجاب بطيبة :

- لك ما تريدين يا أغلى الناس.

لم تصدق نفسها وهى تطلق زفرة من صدرها بعد انصرافها من أمامه وكأنها خشيت من انهيار مقاومتها وتضطر لاخباره بالحقيقة وهوفى حالته المرضية تلك.

لم تعد تدرى إن كانت تخشاه أم تخشى عليه.

ومضت الليالى وهى شاردة بين الشروق والغروب، وكأنها تبحث عن لا شيء... عن مجهول يتربص بها أو عن ماض تهرب منه، الخوف استقر فى اعماقها حتى باتت تفزعها نبضات قلبها.. لم يعد الليل للأحلام والأمانى السعيدة بل أصبح بالنسبة لها ملتقى لشياطين الشر والطموحات الوئيدة، ولا النهار بات مشرقاً ومبشراً كعهدها السابق به، بل أصبح منذراً ومهدداً بفضح حقيقة ماضيها المذل.

حاولت أن تفكر.. أن تتخذ قراراً.

ولكن الخوف كان أقوى من قدراتها.

الخوف الذى جعلها تتصرف بعشوائية غير مبررة للجميع، عندما أصرت على إنهاء التعاقد مع مديرة المنزل لأسباب واهية لم يهتم بها أحمد كثيراً بقدر عدم اقتناع أيمن الصديق، ولكنها نفذت ما أرادت.

تنفست الصعداء، أو حاولت أن تعود إلى حياتها الطبيعية مع زوجها بل بالغت فى التعبير عن حبها له، وبالغت فى سعادتها

بتعليقات أيمن الساخرة ونكاته للترويح عن صديقه، بالغت حتى مع نفسها وتوهمت بأن الحياة أقبلت عليها من جديد.

ولكنها لم تكن تدرى بأن الحياة لا تقبل إلا على السلام الصادق وتدبر عن الخداع الخانق.

وذات صباح.. تحجرت مخالب الزمن الغادر، وطرقت الباب الخارجى للفيلا بلا تحفظ أو مواربة، وذهبت هى إلى الباب لتستطلع الطارق لتجد نفسها وجهاً لوجه أمام لعنة الزمن.

فوجئت بابن عمها.. بل بكل قهر الماضى.

وقبل أن تتفوة بحرف واحد لا حقها قائلاً :

- كيف حالك يا بنت عمى.

ارتعشت شفتيها، ولم يعد لديها القدرة على انطلاق الأحرف من خلالهما..فاستسلمت لرجفتها فى ذعر حقيقى، مما دفعه لأن يقول :

- سأظل واقفاً هكذا خارج المنزل.

تراجعت بخطوة كالمسحورة، والذهول يغشى نظراتها.بينما تجاوزها هو إلى الداخل بعد أن شجعته نظرتها المرتعبة.. ثم التفت إليها قائلاً :

- إيه الحكاية يا بنت عمى، أراك غير سعيدة لرؤيتى.

همهمت بانكسار ، ول المفاجأة.

- لا أبداً.. أهلاً بك.. ولكن..

سارع مقاطعاً :

- لا تخشى شيئاً..فانا لم أحضر إلا بعد أن علمت بقصة زوجك المريض..أليس مشلولاً كما عرفت من موظفى شركته؟

وبمجرد أن أتى بذكر زوجها، أستأسد الحب الكامن فى قلبها تجاه عزيزها الراقد فى فراشه بلا حول ولا قوة..وتبدلت ملامحها فى تجسيد حقيقى للغضب وهى تتساءل بجرأة :

- ماذا تريد؟!

- أنا.. أنا لا أريد شيئاً جئت فقط للاطمئنان على ابنة عمى.. على خطيبتى التى هربت يوم عرسها.

قالت بتحد:

- أنا لم يكن بينى وبينك أى علاقة خطوبة أو زواج.

سار بضعه خطوات إلى الداخل، وجلس على أول مقعد فى طريقه ثم نظر إليها بنظرة تحمل الكثير من الخبث والوضاعة ..وقال :

- من حقك أن تنكرى علاقة [illegible] أو الزواج..ولكنى أقصد العلاقة الأخرى التى جمعت بيننا سنين طويلة.

- أنت الإنسان الوحيد الذى يعلم أن هذه العلاقة كانت تتم ضد رغبتى.

ضحك بفجور ثم قال :

- المهم إنها كانت تتم..سواء إن كانت برغبتك أو برغبتى.

جحظت عيناها بشر حقيقى وهى تقترب منه مرددة.

- للمرة الأخيرة أسألك..ماذا تريد؟!!

نهض من مكانه ببطء ثم راح يتجول بحرية داخل الردهة وهو يستطلع المكان واللوحات الزيتية المرفوعة على الجدار، ثم استدار نحوها قائلاً :

- أنا لست كأخيك طامعاً فى أموال زوجك..ولكنى جئت لأسترد حقى الذى اغتصبه زوجك.. جئت لكى أستردك ..و..

رفع إحدى حاجبيه مهدداً بوقاحة واستطرد :

- ولعلمك سواء برغبتك أو بغير رغبتك أيضاً كما تقولين.

- تقدمت نحوه فى عناد قائلة :

- ألا تخجل من نفسك.. لقد أخبرتك بما كان بين زوجتك وأخى وأنا علمت بأن الطلاق قد تم بينكما بسبب هذا، واليوم أجدك أمامى وكأن الأمر لا يعنيك.

وبكل صفاقة أطلق ضحكة عالية كادت أن تهز أركان الجدران.

وقال بزهو مبتذل :

- هذه مصالح مشتركة يا بنت عمى..أخوك مع زوجتى وأنا معك.

قالت بثقة حقيقية :

- ألم يخبرك ذلك المتشرد بأن فى مقدورى أن أدمركم جميعاً، ألم يخبرك بمكانة زوجى يا سافل وبأنه قادر على سحقكم جميعاً إذا ما أردت أنا ذلك.

- نعم يا طاهـرة أخبرنى بمكانة زوجك.. ولكن.. لم يخبرنى إن كان فى استطاعتك أن تخبرى أنت زوجك الهمام.. و..

وقبل أن تجيبه اقترب هو بخطوة منها..ثم أردف :

- اسمعى يا بنت الناس.. أنا وأنت فقط اللذان يعرفان حقيقة ما بيننا..وكما أننى لم أنس صفعتك لى على وجهى بعدما أصبحت جميلة يجب أنت لا تنسى كيف كنت أضع وشاحا على وجهك عندما كنت دميمة، فكونى عاقلة، سأترك لك زوجك وما له..مقابل أن أستمتع معك بما وهبته لك الأقدار من جمال.

بدت نبرتها متراخية وهى تهدده :

- سأفضح أمرك لكل العائلة :

عاود لضحكته الصفيقة..ثم قال :

- عائلة...أى عائلة يا بنت الأكابر، .. أنا لم أحضر إلى هنا إلا بعد ما دفعت لأخيك الصغير الثمن لمعرفة مكانك، .. وفى الحقيقة أنت مخطئة لأنك تأخرت عليه حسب الموعد.

أقلقه صمتها المفاجئ وهى تطيل النظر إليه، مما دفعه لأن يقول بتوجس مضطرب!

- بماذا تفكرين؟!!

أجابت باقتضاب :

- لا شىء اذهب الآن لحين أتخذ القرار المناسب وعلى كل حال سوف أكون فى انتظارك المرة القادمة.

إبتهجت أساريره وهو يتأهب لإطاعة رغبتها..قائلاً :

- الآن فقط علمت بأنك تدركين الحياة على حقيقتها..سوف أنصرف الآن..وسأعود إليك غداً فى المساء.

تبعته بهدوء إلى الباب الخارجي، وما كادت تهيئ له الانصراف حتى فوجئت بأيمن وهو يتأهب لطرق الباب ووجدت نفسها وجها لوجه أمام هذا الموقف اللعين وأوحى لها شيطان فكرها أن تسارع قائلة موجهة كلماتها لابن العم قائلة :

- لا تنس أن تبلغ سلامى إلى خالتى..أخبرها بأننى بخير ولا داعى للقلق على.

همس ابن العم وهو يتجاوز أيمن فى طريقه للانصراف.. قائلاً:

- سأخبرها.

ومن خلال نبرة متشككة قال أيمن وهو فى طريقه إلى الداخل:

- كيف حالك يا منال هانم..هل أحمد مستيقظ؟

رددت وهى تغلق الباب باتزان فاشل :

- نعم نعم..ستجده مستيقظاً..أحمد الله إنك حضرت الآن فلقد كنت فى طريقى إلى غرفتى..أنا أشعر بالإرهاق الشديد أرجوك حاول أن تسلى وقته بعض الشىء..أنت فى بيتك..واسمح لى بأخذ قسط من الراحة والاسترخاء.

قال وكأنه يحدث نفسه :

- المهم أنه بخير..سوف أصعد إليه.

وتركها..بل وتركته.

واندلفت إلى غرفتها وهوت فوق فراشها ليتلقفها النوم الزائف أو الموت العاجز.

٩

أشرقت شمس صباح اليوم التالى، ولكن الليل لم يرحل عن وجدان منال وكأنه ترك على وجهها لمسة من بصماته فى شكل خطوط قاتمة تحت جفونها، حيث أرهقها السهر وأتعسها كابوس أحداث ليلتها.

تحركت بصعوبة من فوق فراشها وهى تجر فى خطواتها وكأنها تحمل أثقالا فوقها.

دخلت الى غرفته.. وما كادت تفعل حتى أطلقت صرخة مدوية بلا وعى من هول المفاجأة، وراحت تصيح وهى تتلفت فى كل اتجاه مرددة :

.. أحمد.. أحمد.

فهى لم تجده فوق فراشه، شلت المفاجأة حركتها لبضع لحظات وهى تتساءل فى صمت.. كيف.. وأين؟

هرعت إلى خارج الغرفة، ونادت بأعلى صوتها على الخدم الذين التفوا حولها مسرعين، وهم ينظرون إليها فى صمت مثير إزاء تصرفها الغريب.. وبادرتهم بلهفة متسائلة :

- أحمد بيه.. أين أحمد بك؟!

تقدم حارس البوابة الخارجية بخطوة منها ثم أجاب بهدوء :

- أحمد بيه انصرف منذ ساعة برفقة الاستاذ أيمن.

عادت مسرعة الى داخل غرفته مرة أخرى، وبحثت عن المقعد المتحرك فلم تجده وكأنها تريد التأكد من معلومة الحارس.

صاحت دون أن تظهر لهم، وأمرتهم بأن يعود كل منهم الى عمله وجلست بالقرب من فراشه تتأمل فراغه وكأنها تحادثه فى صمت وهى فى حقيقة الأمر كانت تتحدث مع نفسها.

ما هذا التصرف الغريب.. تراه أين ذهب؟. وأيمن ما الذى أتى به مبكراً هكذا.. هل..؟!!

ووقفت فجأة، بل وانتفضت وكأنها لدغت من أفعى.. ثم عادت وأردفت فى حديثها الصامت.

هل أخبره بشىء.. وبماذا أخبره ؟!!!!

يا الهى ماذا أفعل؟!!!

مضت السويعات بطيئة، وهى تزداد توتراً كلما مر بعض الوقت.

قطعت الردهة الخارجية ذهاباً وإياباً، وكأنها فى انتظار حدث جلل وتوحشت التوقعات السيئة في فكرها، وبدأ الخوف من المجهول يسيطر على أعصابها رويداً رويداً.

وفى غفلة من انتباهها، فوجئت بهما يظهران أمامها وأيمن يدفع بالمقعد المتحرك أمامه، بينما تسللت ابتسامة ضعيفة على شفتى أحمد قبل أن يبادرها قائلاً :

- صباح الخير يا منال.. متى استيقظت من نومك !!

اندفعت نحوه، وكأنها ترغب فى إلقاء جسدها فوقه، وراحت تردد بلهفة :

- أحمد.. أين كنت يا حبيبى؟ وكيف تتركنى هكذا..؟!!

التفتت نحو أيمن فى نظرة صامتة، مما دفعه لأن يقول :

- ماذا أفعل يا سيدتى لزوجك العزيز والغريب.. لقد اتصل بى مبكراً وأصر لأن أصحبه إلى اصدقاءه القدامى.

همست باندهاش :

- أصدقائه القدامى..

عاود أيمن مستطرداً وهويدفع بالمقعد أمامه :

- أجل أصدقاءه.. عنتر بيه وليلى هانم.. فارس بيه وعبلة هانم.. و..

ضحك أحمد وهو يرفع رأسه فى اتجاه صديقه.. ثم قال :

- أنت تسخر من أصدقائى الأسود.. فى المرة التالية سأخبرهم بأنك تسخر منهم وأطلقهم عليك ليلتهموك التهاماً.

ابتعد عنه بخطوة وهو يتيح لمنال فرصة دفع المقعد بدلا منه ثم صاح ضاحكاً :

- أى مرة تالية.. هل أنت متصور بأننى سأذهب معك مرة أخرى.. إذا أردت أن تفعلها ثانية فاذهب بمفردك، أنا لست بمفرط فى حياتى يا عزيزى.

تدخلت منال فى الحديث بعد أن اطمئنت قليلا..وقالت مبتهجة:

- أنا التى سأذهب معه فى كل مرة بعد الآن.. فأنا أعلم قدر سعادته عندما يذهب إلى تلك الحديقة.. يكفى أننا التقينا فى هذا المكان أول مرة.

استقر أحمد فوق الفراش بعد معاونتها له، ثم قال بهدوء موجهاً كلماته إلى أيمن :

- دعك من سخرياتك الآن، واذهب لتجهز أمورك فالسفر كما تعلم بعد غد.

تساءلت باندهاش متحفظ :

- أى سفر؟

رمقها بنظرة سريعة وهويجيب :

- لقد تقرر سفرى بعد غد لإجراء العملية.

انفرجت أسارير وجهها، واقتربت منه تقبله بسعادة حقيقية ثم التفتت نحوأيمن وأخذت تثرثر فى شبه هيستيريا.

- الحمد لله.. بإذن الله سوف تنجح العملية.. ولكن.. يجب أن أستعد وعليك أنت يا أستاذ أيمن باتخاذ اللازم لاستخراج جواز سفر لى هذا أجمل نبأ سمعته فى حياتى.. الرحلة كم ساعة بالطائرة.. سنسافر بالطائرة أليس كذلك أم بالباخرة.. يا ليتنا نسافر بـــ.... ولكن أحمد يقاطعها بجدية غير متوقعة.

- أيمن فقط الذى سيرافقنى.

تحجرت نظرتها فى اتجاهه وهى تردد هامسة :

- أيمن فقط..و.. أنا لن أسافر معكما؟

أجاب باقتضاب :

- لا يا منال.

صمتت لحظة وكأنها تستوعب الموقف..أوتسترد وعيها من تلك الصفعة المفاجئة..ثم تساءلت فى حسرة :

- لماذا؟

عادت ملامحه إلى هدوئها.. وأجاب بلطف :

- كيف نترك المنزل أنا وأنت لبعض الخدم..ثم من سيتولى الشئوون الهامة ونحن غير متواجدين..؟

قالت مسرعة :

- وكيف كنت تتركه فى السابق؟

ارتفعت نظرته إليها ببطء ثم قال :

- كنت أثق فى مديرة المنزل.. ولكنها غير موجودة الآن.

التفتت منال نحو أيمن وتأملت عينيه فى نظرة تضم الكثير من المعانى الحائرة.. ثم عادت لتحدث أحمد قائلة بشىء من الإنكسار.

- وماذا أفعل أنا هنا بمفردى؟

لا حقها بنبرة مطمئنة :

- كل العاملين هنا رهن إشارتك، وجميعهم يحبونك ويتمنون رضاك.. فلماذا القلق يا حبيبتى؟!!

- لن أشعر بالاطمئنان وأنا وحدى..فأنا لا أشعر بالأمان إلا بقربك منى..ثم إننى أريد أن أكون بجوارك لأتابع حالتك، كيف يمكننى البقاء هنا؟ وأنت هناك بعيد عنى.. والقلق سيفترسنى بل قد أصاب بالجنون.. و..

وهنا تدخل أيمن قائلاً بحرص شديد.

- فى الحقيقة أنا ليس لى دخل فى هذا القرار..وفى كل الحالات أنا لا أنفذ إلا رغبته.. إذا أرادنى أن أبقى سأبقى.. وإذا أراد أن أرافقه فسأفعل.

قالت بتحد وغيظ مكتوم :

- أنا لم أطلب منك مبررات.. ثم..

وجهت حديثها مرة أخرى لأحمد :

- إذن إمنحهم جميعاً اجازات.

أجاب بلا اكتراث :

- بعضهم لا مأوى له غير هذا المنزل.. ثم من سيتولى رعاية شتلة الزهور الجديدة التى غرستها بنفسك.

أفلتت منها صيحة دون وعى..مرددة :

- هذا المنزل ليس ملجأ للأيتام.

ولأول مرة ترى الصرامة القاسية على ملامح وجهه، وتلاحظ النظرة الغاضبة فى شراسة وهويقول :

- هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى سأسمح لك فيها بأن تناقشينى بهذا الأسلوب يا منال وحاذرى أن تكرريها.. و.. توجه بكلماته لأيمن مستطرداً :

- إذهب أنت الآن يا أيمن وأفعل ما طلبته منك.

تراخت عصبيتها بعدما تنبهت لفعلتها وسرعان ما هدأ توترها أوحاولت أن تبدوهكذا..وسارت خلف أيمن تودعه حتى نهاية الغرفة وهى تحاول أن تكون مازحة معه..وقالت:

- يا لك من محظوظ..سترى فرنسا وعاصمتها المتلألئة، وتنعم بكل مغرياتها، إياك وأن تنسى بألا تأتينى بصورك.

فوجئت بنبرته الفاترة وهو يقول قبل انصرافه دون أن يلتفت إليها :

- أنا لست ذاهباً لهذا الغرض.

و.. انصرف..

عادت إلى زوجها والابتسامة تعلو شفتيها وكأنها لم تلحظ فتور كلمات الصديق.. واقتربت من أحمد بعد أن جلست بجواره.. قائلة:

- سامحنى يا حبيبى..لم أقصد أن أحدثك بهذه الطريقة..قلقى عليك ورغبتى الشديدة لأن أكون بجوارك دائماً، جعلنى لا أحسن التعبير والاعتراض على عدم مرافقتى لك.

بدا شارداً وهو يطلب منها قائلاً :

- ساعدينى على تبديل ملابسى.

تراجعت برأسها قليلاً وتأملت فى عينيه نظرة صامتة قبيل أن تنهض وتتم ما طلبه منها..وقبل أن تعود إلى جلستها، فوجئت به يقول بحنان :

- ليتك يا حبيبتى تتركينى قليلاً لأرتاح من عناء جولتى فى هذا الصباح.

جاهدت كثيراً وهى تحاول أن تخفى توترها.. ثم قالت :

- لك ما تريد يا غالى..سأقوم لتجهيز طعام الغذاء لك وأعود إليك سريعاً.

أسرع قائلاً بلا تردد :

- أرجوك لا توقظينى إذا ما كنت قد استسلمت للنوم.

الغموض سبق نظرتها إليه، وأجابت وهى تتأهب للانصراف:

- لك ما تريد يا حبيبى.. وعلى كل حال إذا لم يغلبك النعاس فاطلبنى وأنا سأحضر اليك.

ووضعت قبلة خاطفة فوق جبهته.. و.. انصرفت.

ولم يطلبها.. وهى أيضاً لم تهتم.

اتخذت موقفاً صامتاً عساه يتراجع عن قراره ويأخذها معه فى رحلة سفره للعلاج، واتخذ هوأيضاً موقفاً مماثلاً لعلها لا تجد فرصة للإلحاح عليه.

وفى يوم الرحيل، وقفت تودعه بنظرة مستسلمة، تئن حسرة وعتابًا بينما تحرك أحمد بمقعده فى اتجاهها وقال بابتسامة هزيلة:

- لا أعرف إن كان القدر سوف يجمعنا مرة ثانية أم لا.. ولكنى أتمنى من الله أن أعود إليك.

انهمرت دموعها لتتلامس مع شفتيها المرتعشتين.. وقالت :

- سأصلى من أجلك، فأنا ليس لى أحد فى هذه الدنيا سواك.

مد يده ممسكاً بكف يدها برفق.. وهمس :

- لقد أصدرت أوامرى لجميع العاملين بالشركة بأن يكونوا رهن إشارتك.

سارعت مجيبة بحماس حقيقى :

- المهم أن تعود سالماً، فأنت يا عمرى جعلتنى لست فى حاجة إلى أحد.

سحب يده بهدوء وقال وهو يتأمل عينيها :

- سامحينى لوكنت ظلمتك طوال الفترة الماضية، ولكن عزائى الوحيد أن الأمر كان يفوق إرادتى.

انحنت إليه تعانقه، وقد صاحب النحيب مدامعها ورددت :

- لا تقل هذا يا أغلى الناس.. أنا التى أرجوك أن تسامحنى إذا كنت فى لحظة لم أستطع إسعادك.. ولكن عزائى أننى حاولت بكل جهدى وإمكاناتى.

استدار مستسلماً لقيادة أيمن للمقعد، متخذاً طريقه إلى خارج الفيللا.

بينما لم تتمكن هى من مقاومة تلك اللحظة القاسية، واندفعت مسرعة إلى غرفتها وألقت بنفسها فوق الفراش مجهشة فى بكاء مرير.

اعتصمت فى غرفتها ولم تبرحها إلا مع الغروب، عندما سمعت طرقاً خفيفاً على النافذة وفوجئت بابن عمها يبادرها بسماجة وفجور:

– أخوك هوالذى أرشدنى إلى هذه الطريقة.

أخرستها المفاجئة، وظلت ساكنة وهى تنظر إليه بحنق مكبوت، مما شجعه على أن يقفز إلى داخل الغرفة.. ثم أردف :

– كنت أعلم أنك ستفكرين جيداً، وتتخذين القرار السليم.

استدارت بهدوء، وجلست على طرف الفراش وهى تشير إليه بالجلوس على المقعد المقابل.. ثم همست :

– لا تعتقد أنى أخشاك.. فأنا كفيلة بكم جميعاً، ولكنى أشفق على زوجى هذا الرجل الكريم والعظيم.. أشفق عليه من أن يصدم من حقيقتى ومن انتسابى لعائلة كريهة مثلكم.

أجاب ببرود وصفاقة :

- نحن أيضاً لا نريد أن نزعجه.. المهم النتيجة.. و..

وتفحص قوامها بنظرة شرهة، شعرت بها تكوى بشرتها.

لم تعر لكلماته اهتماماً، ولا حقته قائلة :

- أريد أن أعرف السبب الذى دفعك لتطليق زوجتك.

أجاب بهيام :

- أحسست بأنها ستصبح عائقاً يحول بينى وبينك.

سألت بتحفز :

- ألهذا السبب فقط؟

أومأ برأسه دون أن يتحدث.. فقالت بإصرار ورغبة شديدة لاستنفار نخوته :

- كيف اكتشفت علاقتها بأخى؟!!

أجاب بفتور وبلادة، وكأن الأمر لا يخصه :

- لا يا بنت عمى لا تظلميها.. أنت فقط كنت تتوهمين ذلك.

أطلقت إجابتها، وكأنها تلقى بقنبلة فوق رأسه لتقضى عليه :

- لقد رأيتهما بنفسى.

دار بنظرة ليتفحص أرجاء الغرفة.. ثم قال دون أن يلتفت نحوها:

- على كل حال هى ذهبت لحالها.

قالت بتهكم :

- هكذا بكل بساطة !!

نهض واتخذ مكاناً بجوارها تمهيداً لغرض فى نفسه.. فسارعت قائلة :

- لا أرجوك.. اليوم غير مناسب فكل العاملين والعاملات بالفيللا موجودون الآن.

أجاب والشوق يدغدغ نبرة صوته :

- لم يرنى أحد.

- قلت لك دعنى أرتب لك الأمر بعد غد.

تساءل بلهفة :

- وزوجك.. وهذا الرجل الذى رآنى المرة السابقة.

رمقته بنظرة لا حياة فيها.. ثم قالت :

- لقد سافرا اليوم.

ابتهجت ملامح وجهه.. وصاح مهللا :

- ما أجمل تدابير القدر.. ولكن.. أخبرينى بالمناسبة ما الذى دفعك للارتباط برجل فى مثل ظروفه هذه، لا أعتقد أنك أحببته.. لا بد وأنه منحك الأموال وسجل لك العقارات.. فأنا أعرفك داهية منذ طفولتك.

أطالت النظر إليه وهى تتحدث مع نفسها :

تسألنى عن السبب يا حقير.. السبب أنتم يا قتلة.. السبب أننى وجدت نفسى وسطكم دون إرادة.. وحوش بلا ضمائر ولا أخلاق السبب أنتم يا سفلة لأنكم دمرتم آدميتى وسحقتم كيانى وأرضعتمونى الشر والفسق والرذيلة.. و..

انتبهت على صوته وهويقول :

- إيه الحكاية... لماذا تنظرين لى هكذا؟

استعادت هدوءها قبل أن تجيب :

- لا شيء.. كنت أفكر فى ضرورة انصرافك الآن. فموعد عشائى قد حان وربما يأتى أحد ليخبرنى بذلك فيراك.

ردد قائلاً باستخفاف :

- يا عينى على العز.. أصبح لعشائك موعد.. الله يرحم زمان وأكل السلم والسطوح.

نهضت قائلة بلا مبالاة :

- لكل زمان وقته.. هيا الآن انصرف من حيث أتيت.

قال وهويستعد للقفز من النافذة :

- موعدنا بعد غد أليس كذلك!

أومأت برأسها فى صمت، وهى تتابع انصرافه واختفاءه وسط ظلام الحديقة.

و.. عادت إلى فراشها وهى تقاوم رغبة عنيفة للتقيؤ.. وأغمضت جفنيها، وكأنها تفصل نفسها عن واقعها البشع واستدعت صورة أحمد فى خيالها وهمست إلى نفسها بصدق كبير.

.. كم أفتقدك يا حبيبى.

١٠

أن يضيع الحق أو ينتصر الباطل.. أن يدان القتيل أو يبرأ القاتل..أن يتحول الانتماء إلى صراع الغرباء..أن تموت الفضيلة أو تسيطر الرذيلة.. أن يرحل الأمان أو تتوالى الأشجان.. أن تتوه المعاني فوق السطور أو تنمو الزهور فوق القبور.

أن يحدث كل هذا من خلال رحلة الزمان ؛ فقد يكون محتملا طالما يجد المرء مبررا لكل حالة من تلك الحالات ولكن.. غير المحتمل أن يجد الإنسان نفسه منغمسا في لحظة غموض شاردة لا مبرر لها ؛ لحظة قاسية يكاد أن يتوقف الزمن أمام سطوتها.

تلك هي اللحظة التي فاجأت أحمد وهو يستطلع ظلام الأفق من خلال نافذة الطائرة في رحلة عودته ؛ وكأنه يسبح بجسده هو الآخر في ذلك الفضاء بجناحي الحيرة والغموض.

دون أن يدرى انفلتت من بين شفتيه همسة مسموعة مرددا:

لماذا.. لماذا؟

مما أثار انتباه أيمن الذي يجاوره في الطائرة.. ودفعه لأن يتساءل :

– أحمد ماذا بك.. أنت تحدث نفسك؟ !

انتبه لتساؤل صديقه.. فتمتم دون أن ينظر إليه قائلا:

- لا شيء.. لا شيء.

و.. بدأت الطائرة في الهبوط بعد رحلة غياب دامت ثلاثة أسابيع وما إن استقرت الطائرة على أرض المطار.. حتى قال أيمن في محاولة لانتشاله من شروده :

- حمدا لله على السلامة.. هل تعلم يا صديقي العزيز أن نجاح عمليتك ليس في مصلحتي؟ لأنك ستعود كسابق عهدك وتسبقني في الدوران حول تراك النادي.. على كل حال سأستأجر دراجة بخارية وألهث وراءك.. وسوف أسبقك.

لم يبتسم وظل على صمته طوال الطريق وهما يستقلان السيارة الأجرة.

ومرة ثانية يحاول أيمن أن يهيئ مجالا للحديث معه.. فأردف:

- لا تتخيل سعادة الجميع بتلك المفأجاة..فى الحقيقة لم أجد مبرراً لطلبك هذا.. و..

صمت لحظة يتأمله ثم استطرد يائساً.

- يبدوأننى الذى أحدث نفسى.

وبمجرد أن توقفت السيارة أمام الفيلا لمحه حارسها الذى راح يهلل بسلامة وصوله وهو يحمل الحقيبة، وأسرع إلى الداخل مردداً بصوت ملؤه السعادة.

.. البيه وصل.. أحمد بك وصل بالسلامة.

بينما ظل أيمن داخل السيارة الأجرة وقال باتزان وجدية.

- أراك غداً فى الشركة.

وما إن وصل أحمد إلى منتصف حديقة الفيلا، حتى فوجئ بمنال تندفع بسرعة فائقة فى اتجاهه، مرددة بنبرة مسموعة وكأنها تزغرد.

- يا حبيبى حمدا لله على سلامتك مستحيل... ألف مبروك و.. ألقت بنفسها فى صدره وهى تضمه بقوة تارة وتغمره بالقبلات تارة أخرى.

همس من خلال ابتسامته المعهودة.. قائلاً :

- كيف حالك يا منال؟

- أنا بخير.. بخير يا حبيبى.

وراحت تقفز بجانبه وحوله وهو يخطو إلى الداخل.. واختلطت دموع الفرح مع ضحكاتها وتدفق سيل الأشواق وتعبيرات اللهفة والحنين وبادرته بمجرد أن استقر فى مجلسه متسائلة فى عتاب رقيق :

- لماذا لم تخطرنى بموعد وصولك يا أغلى الناس.. و..

لم تتح له فرصة الاجابة ولا حقته قائلة :

- المهم أنك بخير.. وبأنك عدت لى سالماً معافى.. آه يا حبيبى آه لوتعلم كم كنت قلقة عليك.. وكم كنت فى حاجة إليك؟!

أجاب والابتسامة الهادئة لا زالت على شفتيه :

- لم أرغب فى إزعاجك أكثر من ذلك.

- تزعجنى.. كيف تقول ذلك يا غالى؟ فأنا أشعر وكأنى خلقت لأكون طوع أمرك دائماً.. هيا يا حبيبى لكى تبدل ملابسك لتستريح قليلاً.

نهض بهدوء وخطا عدة خطوات إلى غير اتجاه محدد.. ثم التفت نحوها قائلاً.

- فى الحقيقة يا منال.. لقد ظللت طوال الفترة الماضية، أفكر فيك.. بل وأرتب حوارى معك عندما ألقاك.. و..

ولكنها قاطعته بحب صادق قائلة :

- يكفى أن روحك كانت تحوم حولى..وصورتك لم تبرح خيالى.. كنت أقطع الوقت فى استدعاء ذكرياتى الجميلة معك، حنانك ولمساتك وهمساتك وابتسامتك.. كل شىء.. كل شىء كان يعيش بداخلى.

-أحمد الله أننى كنت تاركاً هذا التأثير فى نفسك..وأنت أيضاً يا منال لا أنكر عليك مثابرتك معى، وتحملك عناء تمريضى وشقاء وحدتك.. ولا أستطيع أن أنسى سهرك الليالى ومحاولاتك الجادة لإسعادى، بل وتضحيتك أيضاً بأبسط حقوقك كزوجة شابة.. جميلة وساحرة.

- حقوقى فى حبك تحولت إلى واجبات فقط لإسعادك يا أغلى الناس.

استدار مولياً لها ظهره وقال فى تردد واضح.

- من أجل تلك المشاعر الرائعة، التى جمعت بيننا.. ومن أجل إقرارنا أنا وأنت بأن كلانا، حاول جاهداً بأن يسعد الآخر.. من أجل كل هذا أعفيت نفسى من حوارات كثيرة، وأعفيتك من مبررات سقيمة.. ثم.

والتفت نحوها بتماسك وهدوء مثير.. ثم قال بحزم :

- أنت طالق يا منال..!

حاولت أن تصرخ ولكن هول المفاجأة شل تفكيرها، وكادت نظرات الفزع تمزق شرايين عينيها.. وبصعوبة بالغة رددت بحشرجة.

- طالق.. أنا طالق.

مضت لحظات صمت وهو يتأملها بنظرة جليدية،وقد تحجرت ملامحه وكأنه تمثال من البرونز ثم قال بنبرة لا حياة فيها.

- سأمكث فى غرفتى حتى تنتهى من جمع حوائجك.. خذى ما تريدين من غرفتك.. فأنا بعد رحيلك لن أبقى على شىء يذكرنى بك.. و.. تركها منصرفاً إلى غرفته بخطى ثابتة دون أن ينتظر منها أى رد فعل.

جلست وكأنها تسقط فوق المقعد القريب منها، ولم يمنعها ذهولها من أن تهمس إلى نفسها وهى فى لحظة اللاوعى..

كان يعلم.

وهو حقاً كان يعلم.. فقد أخبره أيمن بما أطلعته به مديرة المنزل، وأخبره أيضاً بما رآه بنفسه.. بل أخبره كل العاملين بالفيلا بما كانوا يلاحظونه طوال فترة غيابه، من خلال أحد موظفى الشركة كلما اتصل به من الخارج. وكانت تعليماته لهم بأن يتركوا ذلك المتسلل يتصور بأن لا أحد يراه.

و.. انسابت الدموع من عينيها على استيحاء، وعادت لحديث النفس.. ماذا أفعل يا ربى!!؟!!!

هل أخبره بالحقيقة كاملة.. هل سيصدقنى.. هل..؟!!!!

ونهضت كالمسحورة واستدارت فى اتجاه الباب الخارجى، وسارت تشق ظلام الحديقة مطأطئة الرأس فى انكسار ذليل تتابعها نظرات عيون العاملين وحارس الفيلا ما بين محتقر وكاره.. وبين مشمئز وسعيد برحيلها.

ومرة أخرى تجد منال نفسها فى الطريق وحدها، وسط ظلمة الليل وغفوة الضياع.. مرة أخرى تبرز مخالب الخوف والقهر لتشعر بها وهى تمزق أحشاؤها وتشتت وجدانها وتقبر آمالها.

مرة أخرى تظهر أمامها صورة قرينة الماضى ذات الوجه القبيح والنفس المقهورة والكيان الذى بلا ظلال.

قرينة الماضى التى كانت تبحث عن آدميتها وتستصرخ العالم فى أعماقها فلا تجد أنيساً غير حيوانات وطيور سطح البيت العتيق أو خفافيش ظلام الرذيلة خلف ستارة غرفتها الضيقة.

قرينة الماضى ظهرت أمام عينيها وكأنها حقيقة مجسدة عادت لتنعم وحدها بلحظات سعادة واهية..تنعم بيوم بلا غد وبواقع بلا وجود..ومن خلال غشاوة الدمع ورجفات القمع، وجدت نفسها تتساءل من جديد.. إلى أين؟!!

ساقتها خطواتها الشديدة إلى كورنيش النيل.. وقفت تتأمل انسيابه الهادئ الوقور، إزدادت رهبة من السكون الموحش.. الأصوات فى أذنيها كالفحيح والأفكار فى ذهنها تتضاءل وكأنها فوق حلبة صراع.. صوت الموت يناديها وحسرة الندم تناجيها.

.. الآن يجب أن أنتهى من هذا العذاب.

.. سأحرم الليالى من لذة تدميرى.

.. سأقبرك يا قرينة الماضى فى أعماق هذا الرهيب الصامت.

.. سأموت وأميتك معى.. سأتخلص من الماضى اللعين مقابل الهروب من الغد المهين..

.. سأفعل.

وما كادت تفعل حتى تراجعت فجأة عندما تلألأت فى مخيلتها صورة أحمد وكأنه افترش سطح النيل بأكمله وهو يناديها بل يرجوها بألا تفعل.. من أجله هو وليس من أجلها.

وكأنها تسمعه، ولم تجد غير طاعته.. ولم تفعل.. و..

استدارت منتبهة لواقعها، لتكتشف نفسها وسط أناس يغدون ويروحون ذهاباً وإياباً فى مسيرة الحياة وكل منهم يختال بخطواته الثابتة على الطريق، وبكل عزيمة غير متوقعة، صاحت بجرأة لأول سيارة منادية :

- تاكسى.. تاكسى.

وبمجرد أن استقلته قالت بثقة :

- عزبة النخل يا أسطى من فضلك.

و.. عند وصولها كان لقاء أهل البيت مثيراً للدهشة والتعجب.

لقاء فاتراً بعيداً عن كل التوقعات.

لا شىء غير بعض الاستفسارات المقززة.

.. هل رآك أحد من الجيران وأنت قادمة؟

.. أين زوجك الذى تزوجتيه بدون علمنا؟

ويتدخل الأخ الأكبر بعد معرفة الحقيقة ويتساءل ببلادة :

.. كم حصلت من مؤخر صداقك.. لابد وأنه كان ثرياً.. أليس كذلك؟

ويعود البعض الآخر فى الثرثرة بما فيهم والدتها.

.. أين حقائبك؟

.. طوال عمرك وأنت قليلة الحظ.

.. الله يخرب بيته اللى ضحك عليك.

ومرة ثانية يتدخل الأخ الأكبر قائلاً بثقة :

.. على كل حال ابن عمك لا يزال يريدك.. وعندما يعود من البلد سأعلن له موافقتك، وإن شاء الله يكون خير بعد أن تمضى الثلاثة شهور.. وتتزوجينه.

ويقترب منها المتشرد الصغير هامساً دون أن يلحظ أحد.. هل زوجك رآك مع ابن عمنا ولهذا طلقك.

كانت مفاجأة ذلك الاستقبال المدهش، كافية لأن تشعر بقوتها وسطوتها على تلك العائلة المحيرة.

فلم تبد اكتراثاً لثرثرتهم وكأن الأمر لا يعنيها أويعنيهم.

وتحركت بهدوء من وسطهم.. قائلة بحزم.

أنا متعبة وأريد أن أنام قليلاً.

فأسرع الأخ الأكبر قائلاً وكأنه يكافئها بنوع من التكريم :

- ارقدى فى غرفة ابن عمك..فهو مسافر فى البلد منذ ليلتين و..

رقدت.. أو نامت محتضنة فى مخيلتها موقف أحمد الاخير.

بينما كان موقفه هو متناقضاً تماماً مع تصوراتها، حيث أعطى تعليماته لكل العاملين بالفيلا بالقضاء على كل شىء يذكره بتلك الزوجة الخائنة.

أمر برفع جميع اللوحات التى كانت تفضلها فوق الجدران.. أن ينزعوا شتلة الزهور ويلقوا بها بعيداً عن الحديقة.. أن يكسروا الأوانى التى كانت تستعملها، ويمزقوا الملابس التى كانت ترتديها.. واستدعى مديرة المنزل المطرودة من جديد.. وأعاد ترتيب أثاث غرفة نومها بشكل مختلف.. دمر الأسطوانات والأشرطة التى كانت تهوى سماعها.

حاول أن يمحوها من ذاكرته، ولكن جرح الخيانة الذى شق قلبه كان يعانده دائماً.

وحاولت هى أن تلتمس له العذر لموقفه معها، ولكنها فشلت أيضاً أمام تضحياتها الكبيرة التى قدمتها له وهى راضية.. وأمام العتاب المتواصل الذى دأبت الحكيمة فاطمة أن تواجهها به منذ عودتها.. قائلة :

- لقد حذرتك يا منال من سوء فعلتك.. وها هى النتيجة.. لقد ضحيت باستكمال تعليمك المتفوق.. وضحيت بوظيفتك، وضحيت بأهلك.. بل وضحيت بسمعتك بين الجميع.. والنتيجة أنك عدت خالية الوفاض، لا زوج ولامال ولا كرامة.. و...

وبدت الحكيمة فاطمة أكثر حماساً عندما لاحظت الإنصات البالغ والتركيز الشديد من منال لكلماتها.. فأردفت بثقة الفلاسفة قائلة :

- يا منال يا أختى.. الرجال خادعون وأنانيون بطبعهم، وأمثال زوجك هذا من أصحاب الثراء الكبير والبيئة الاجتماعية المختلفة ينظرون لأمثالنا وكأننا من ضمن ممتلكاتهم، يتحكمون فيها كما يريدون، أمثال زوجك هذا، يتصورنا وكأننا بلا مشاعر أو طموحات وليس علينا غير طاعتهم فقط.. والاستجابة لرغباتهم فقط.. وبأننا خلقنا للواجبات فقط وليس لنا حقوق.

تململت منال مبدية عدم اقتناعها وقالت فى استحياء :

- لا يا ست فاطمة، أحمد ليس مثل هؤلاء الرجال الذين تتحدثين عنهم.

استفزتها تلك الملاحظة العابرة، واعتدلت فى جلستها.. ثم قالت :

- اسمعى يا منال يا حبيبتى.. أنا أكثر منك خبرة.. وأكبر منك عمراً والحياة علمتنى ما لم تتعلميه انت وغيرك فى الكتب والشهادات..

فأنا تعرضت منذ وفاة زوجى لمغريات تفوق كثيراً ما رأيته فى حياتك، لقد كنت شابة مثلك جميلة، بل أجمل منك، التقيت بنماذج كثيرة.. عاطلون وأطباء.. مثقفون وجهلاء.. فقراء وأغنياء شباب وشيوخ.. قوادون وشرفاء، ولكنى لم أنزلق مثلك ولم أسقط فريسة لأحلامى الكبيرة، أتعلمين لماذا؟. لأننى كنت

دائماً أذكر نفسى بحقيقة واقعى.. الماء تطفئ النار.. والنور يقهر الظلام.. والمحتاج لا يملك القرار.

وبإصرار يفوق العناد، قاطعتها منال قائلة :

- لازلت أؤكد لك أن أحمد ليس منهم.

لاحقتها الأخرى بغيظ :

- لو كان كما تقولين.. فلماذا طلقك.. بل وطردك بلا حقوق.

مضت لحظات صمت متوترة، ثم أجابت منال وكأنها تحدث نفسها :

- لقد كان عطوفاً وحنوناً، كان رجلاً شريفاً وصادقاً، كان كريماً وشامخاً.. تعلمت الحب من نبضات قلبه.. وشعرت بالأمان من نظرة عينيه.. ولمست الحنان من لمسة يديه.. كان غالياً لدرجة أن لا شىء يوازى ابتسامة فوق شفتيه..و..

قاطعتها بتهكم :

- لا زلت أسألك.. لماذا طردك من حياته إذن؟!

سبقت دموعها كلماتها قبل أن تجيب :

- لأنى كذبت عليه.. قابلت صدقه بالكذب، وأمانته بالخوف وتلقائيته بتحفز.. قابلت مستقبله بماض مظلم.

عادت فاطمة لقدر ثقافتها الطبيعى.. وتساءلت بشغف :

- لماذا فأنا لا أفهم ما تقولين؟ ! !

- فى الحقيقة أنا ألتمس لك العذر فى كل ما تقولينه.. لأنك لم تصادفى إنسانا مثل أحمد، ولأن بيئتنا العشوائية تلك، نزعتنا من جذورنا، فأصبحنا بلا أرض وبلا انتماء، فأمثال أحمد كثيرون فى بيئتنا الحقيقية بل أكثر منه رجولة وشهامة وثراء وعلماً، ولكن العيب فينا، نحن نخطو بخطوات بلا طريق.. ونحلم بلا إمكانيات ونسعى بلا هدف محدد..و..

قاطعتها مرة ثانية :

- كفى.. كفى إذا كان الأمر كذلك.. أعطنى عنوانه وأنا ساذهب إليه وأستسمحه على فعلتك تلك، لعله يسامحك، بل من المؤكد أنه سيسامحك إذا كان بكل تلك المواصفات.

قالت بحسرة ملتاعة :

- لا لن.. يسامحنى.. وحتى إذا أراد.. فقد فات الميعاد.
- كيف..؟ الفقر ليس عيباً.. ويكفى أنك أخفيت عنه ظروفك لأنك تحبينه.. لابد وأنه سيستجيب لى أعطنى عنوانه وأنا سأعود لك بالنبأ السار.

انفرجت أساريرها وهى تقول :

- أنا أثق بك يا ست فاطمة، سأعطيك العنوان .. ولعلك تأتين لى بالنبأ السار، إشرحى له كل ظروفى وكيف ظلمتنى الأيام؟!! قولى له الحقيقة.. فربما يسامحنى.

نهضت فاطمة من مكانها واقتربت منها، وراحت تربت على رأسها وكتفها برفق وهى تردد :

- سأفعل يا حبيبتى.. أنت ابنة رجل طيب، ولادخل لك فيما حدث.

- لن أنسى لك هذا الفضل يا ست فاطمة، والآن سأصعد إلى الشقة قبل أن يلاحظ الجميع تأخرى معك.

و.. صعدت دون أن يلحظ أحد شيئاً..فاندلفت إلى غرفتها الجديدة.. ونامت بعمق.

وفى الصباح، كان النبأ.. ولكنه لم يكن ساراً.

أفصحت المانشتات فى الصحف عن قضية مثيرة وغامضة.

.. القبض على رجل الأعمال الشهير أحمد فهمى.

.. اكتشاف قتيل بلا هوية فى حديقة فيللته.

.. العاملون بالفيلا يؤكدون رؤية القتيل من قبل.

..أحمد فهمى ينفى معرفته بالقتيل.

.. التحقيقات تثبت بأن القتيل كان يتردد على المكان.

.. صديق المتهم يدلى بأقوال مثيرة.

.. أحمد فهمى يصرخ.. أنا برىء.

الصحف تنشر صورة القتيل وتطلب أية معلومات تفيد رجال المباحث عن هويته.

ورحل القمر بلا رجعة .. وانتحرت الشمس بلا مقدمات وساد ظلام الكون فى عين منال .. فقد كان القتيل هو ابن عمها. وتجمهرت نسوة العائلة، واحتشد رجال البلدة، وانتفخت أوداج الثأر، وثارت مشاعر الفقراء وانفجرت براكين البسطاء .. واهتزت الشوارب، واختلفت المآرب وعلت الصيحات واختلطت الأصوات .. الجميع يطالب :

.. الثأر.. الثأر.

ومن وسط تلك الزوبعة القاتمة، فوجئت منال بطرقات خفيفة على باب غرفتها لتفاجأ بشقيقها الأصغر وهو ينظر إليها ببراءة قائلاً :

- أرأيت يا أختى الحبيبة ماذا تقول الصحف.

لم تجبه واستدارت لتجلس على فراشها.. فتقدم بخطوتين.. ثم استطرد :

- الشرطة والجميع يبحثون عن العلاقة التى بين القتيل وبين أحمد بك فهمى.

رمقته بنظرة شاردة.. ثم قالت :

- ما الذى تريد أن تقوله؟!!

- أريد أن أقول إننى الوحيد الذى يعلم ما هى حقيقة العلاقة؟ بين ابن عمنا وبين أحمد بيه.. أقصد زوجك السابق.

اندفعت الدماء إلى رأسها قبل أن تقول :

- لا أفهمك.. !!

اقترب منها أكثر وقال ببرود ووقاحة :

- لا شيء بلا مقابل.. فأنا تأكدت الآن بأن زوجك رأك مع ابن عمنا فقتله ولذلك عدت الينا فجأة ودبرتما الجريمة معاً وكأن لا شيء حدث..وأنا الآن أريد حقى.

- حقك فى ماذا؟!!

- حقى مقابل الصمت..اسمعى يا بنت الناس.. فإما تدفعوا عشرة آلاف جنيه والا سأبلغ عن زوجك.

وفجأة انفجرت كل شرايين جسدها وانبثقت من فمها وأنفها دماء غزيرة وكأنها تلفظ آخر أنفاس ونبضات الحياة وانقضت تنهش بأظافرها كل جزء من جسده وهى تصرخ بصرخات مدوية :

.. يا قتله.. أنتم السبب.. و..

وتعالت صرخات الأخ المساوم :

.. يا مجنونة.. يا مجنونة ماذا تفعلين.

ولكنها لم تتوقف.. وراحت تغرس أسنانها فى أجزاء جسده وكأنها تلتهم ماضيها لتطويه.. واذدادت وعلت صيحاتها :

.. لن يساومنى أحداً بعد الآن يا سفله، سأقتلكم جميعاً سأنقذ الآخرين منكم.

و.. توالت الطرقات على الباب من خارج الغرفة، وتعددت الصيحات :

.. ماذا يحدث..؟!

.. افتحى يا منال.

وظهرت منال بصورة ألجمت الجميع، بنظرة قاسية لا حياة فيها واخترقت المجموعة وهم ينظرون إليها فى ذهول مرتعب.. وانصرفت وهم يتابعونها فى صمت وكأنها شبح من الخيال ولكنها لم تكن شبحاً..بل تجسدت فيها لحظة الصدق وأرادت أن تفصح عن نفسها فى تلك اللحظة واستشعرت بأنها أصبحت قادرة على اتخاذ قرار لأول مرة فى حياتها.

من أجل هذا انصرفت فى هدوء.

١١

وقفت منال أمام وكيل النائب العام ؛ المحقق في قضية اتهام أحمد فهمي.. وقالت بثبات :

- لدى معلومات هامة في القضية المتهم فيها الأستاذ أحمد فهمي.

وبعد استيفاء بعض المعلومات والبيانات عنها.. أردفت في إصرار :

- ولكنى لن أتحدث في شيء إلا في وجود المتهم نفسه.

وبعد استدعاء أحمد فهمي من محبسه الاحتياطي ؛ وقف أمام مجلسها ينظر إليها في شرود والإرهاق يفترش ملامح وجهه بينما تعمدت هى بالا تلتقي نظرتها بعينيه والتفتت نحو المحقق وبدأت تسرد ما جاءت من أجله.

تحدثت عن طفولتها والبيئة التي نشأت فيها وعن لياليها السوداء القاتمة ؛ وأيامها التي لم تلحظ لها إشراقة شمس.

تكلمت عن وحدتها القاسية المريرة ؛ ونفور الجميع منها وتجنب تواجدهم معها ؛ وكأنها جرثومة قاتلة أو وباء لا شفاء

منه وذلك بسبب لم يكن لها دور في وجوده؛ وصفت مشاعرها عندما ابتليت بعاهة خلقية ؛ لازمتها سنوات عمرها ؛ جعلتها منبوذة من أقرب الأقرباء.

روت كيف تيبست شرايين الحنان فى كيانها الرقيق منذ طفولتها ؛ وكيف تحجرت مدامعها في مقلتيها وهى تحت قبضة القهر والهوان وكيف ماتت الابتسامة فوق شفتيها وسكن الخوف أعماقها.. و..

نظرت إلى أحمد الذي كان يتابعها بترقب شديد ؛ ثم أكملت حديثها قائلة :

- كنت أعيش في غربة مع وجداني.. وحيدة تائهة ؛ وكأني وريقة من أوراق الخريف التي انتزعتها الرياح القاسية من فرع شجرة كبيرة وظللت معلقة في الهواء بلا حول ولا قوة.. وكأن الوجود كله قد تكالب في مواجهتي بلا ذنب اقترفته ؛ وباتت حياتي بلا معنى ؛ وليس لي حق التمني فبت كمن ينتظر تنفيذ الإعدام في أية لحظة ؛ ليس لي حق الاعتراض أو الموافقة على أي شيء.. كنت أتبع رغبات وأوامر الآخرين دون تردد وبلا تفكير.. ثم..

وفاجأته قائلة بنبرة ملؤها الحب والعرفان:

- إلى أن ظهرت أنت في حياتي.. وكأن السماء أسقطتك فجأة أمامي بعد أن شهدت على مأساتي وقلة حيلتي ؛ ظهرت أنت لتشرق شمس الأمل في عمري المتبقي، استيقظت مشاعري المقبورة من غفوتها ؛ ولأول مرة أستنشق فى صدري هواء نقيا ؛ وأستطعم مذاق طعامي وأستمتع بالأمان في نومي ؛ لأول مرة أرى للحياة وجها آخر ومعاني كثيرة كانت مسلوبة مني.. أدركت أن للزهور رائحة ؛ وأن للطبيعة جمالها في كل شيء ؛ في ألوانها ونسماتها ؛ في بحورها ورمالها وأن الليل سكنا للآمنين وليس للخائفين ؛ والنهار نور يكشف الطريق إلى الآمال وتحقيق الأحلام.. كنت بالنسبة لي الملاذ الأخير ؛ بعد رحلة شقاء طويلة أماتت في أعماقي كل بارقة أمل للحياة.

ولكن...

واتجهت بنظرها إلى المحقق.. واستطردت بصوت تفوح منه رائحة الأسى:

..ولكن شبح الماضي اللعين أصر ألا يتركني وشأني.. عاد إلى مجسدا تارة في صورة شقيقي الأصغر لابتزازي

ماديا وتارة أخرى في صورة ابن عمى لنهشي جسديا ونفسيا.

وكان على أن أحمى ذاتي التي حدد معالمها زوجي العظيم.. أن أدافع عن جنين الحب في رحم قلبي.

ظللت أساومه مرة وأتحايل عليه بأخرى.. إلى أن جاءت الليلة المشؤومة ؛ قبيل عودة زوجي الكريم بيوم واحد ؛ وقد بطلت كل الحجج والأعذار ورأيت شرر الرغبة القذرة في عين ابن العم ؛ وحاول أن ينال من كياني المسترد ومن جسدي الذي ادخرته ووهبته لزوجي الحبيب برغبتي الحقيقية كأول عطاء فى حياتي أمنحه دون مقابل أنتظره.

ووجدت نفسي تحولت فجأة إلى بركان يتأجج بلهيب الحقد المكبوت وقهر كل مظاليم الدنيا ؛ دافعت عن نفسي وعن حبي ؛ وفى إحدى محاولاته الوحشية ؛ ضربته بكل قوة قدميّ بعد أن أسقطني على الأرض ؛ فاختل توازنه من شدة الضربة وترنح مصطدما في رأسه بالعامود الرخامي داخل غرفتي..و.. انتظرت لحظات متأهبة للتصدى لمحاولته الثانية.. ولكنه لم يحاول ؛ ولم يتحرك.. اقتربت منه وكل كياني ينتفض هلعا واضطرابا.

فوجدته قد فارق الحياة وهو لايزال محتفظا بنظرته الشريرة.. و..

وأرخت رأسها قليلا وكأنها تستعيد صورة الموقف في مخيلتها.. ثم أردفت قائلة :

.. جلست على طرف الفراش ؛ ونظرتي لا تفارق جسده الممدد بلا حراك وظللت طوال ليلتي على تلك الحالة أراقبه في صمت وكأني أتوقع منه الغدر ثانية ؛ وفى صباح اليوم التالي سحبته بكل قوتي إلى أسفل الفراش وانصرفت من غرفتي بعد أن أحكمت إغلاقها ؛ وأعطيت تعليماتي للمسؤول عن تنسيق حديقة الفيلا بأن يحفر لي حفرة كبيرة في الحديقة لرغبتي في نقل شتلات الزهور التي اغرستها بيدي في مكان آخر.. وبعد أن أتم الرجل ما أمرته به أصدرت تعليماتي لجميع العاملين بأن يحصلوا على عطلة لنهاية اليوم وأغدقت عليهم بمكافأة كبيرة وذلك ابتهاجا بمقربة عودة زوجي سالما ؛ فكان الأمر يمثل سعادة لهم.. و.. فرصة لي حيث تمكنت بمفردي أن أسقط القتيل في الحفرة وأعيد ردمها وغرس الزهور فوقها وكأن شيئا لم يحدث.

ثم عادت ورفعت رأسها لتنظر إلى أحمد وكأنها تحدثه هوفقط.. واستطردت :

.. ولكن يشاء القدر أن ينفذ زوجي الغالي ما أخبرني به بعد أن طلقني، بأنه سوف يمحوكل أثر لي في المكان.. فأمر برفع لوحاتي من فوق الجدران ونزع شتلات الأزهار التي غرستها بنفسي.. و.. انكشف الأمر.. وها أنا جئت لأسجل اعترافاتي بلا مواربة ؛ راضية وسعيدة بأنني استطعت أخيرا ؛ أن أتخلص من ذلك الكابوس الذي جثم فوق صدري كلما حاولت أن أبوح لزوجي بالحقيقة.. جئت أتقدم باعترافاتي طواعية لأنه من المستحيل أن يكون جزاء هذا الإنسان الكريم ؛ أن يتهم في جريمة لا ذنب له فيها.. جئت أنقذه من إحساسه بالظلم الذي عانيت منه سنوات عمري الكئيبة.. و.. أجهشت في بكاء متواصل وهى تدفن رأسها بين يديها مرددة:

.. سامحني يا أحمد.. سامحني يا أغلى إنسان.

ولم تنتبه لكلمات المحقق لمعاونه الذي سجل اعترافاتها وهو يطلب منه تسجيل قرار القبض عليها لمدة أسبوعين لاستكمال التحقيق؛ وباتخاذ اللازم بشان الإفراج عن المتهم أحمد فهمي.

فكان الثمن غاليا.. حريته مقابل سعادته.

فبماذا يفيد المال إذا فقد صاحبه سبل إنفاقه على نفسه والآخرين وبماذا تفيد الحرية إذا ما شعر الإنسان بأنه مسجون وراء قضبان أضلعه؛ وبماذا تفيد الشفاه إذا رحلت عنها الابتسامات وانتحرت فوقها أحرف الكلمات. بماذا تفيد الطبيعة بجمالها للعيون التي لا تبصر وللخطى الكسيحة. بماذا يفيد الإنسان أن يستحوذ على كل مقومات الحياة السعيدة مقابل أن يفقد الكيان الذي كان مصدرا لسعادته.

هكذا كانت أحاسيس أحمد فهمي وهو معتكف في غرفته بالفيلا لا يتحدث مع أحد ولا يسمح لأحد بالاقتراب منه.. كان الصمت هو رفيقه الوحيد وذكرياته عن الحلم الجميل الذي تعايش معه هي أنيس وحدته.

حتى أيمن صديقه الوحيد تكررت محاولاته الفاشلة في أن ينتشله من أزمته المريرة ؛ لم تفلح نكاته ولم تثر موضوعاته أي اهتمام لصديقه.

وفى إحدى زياراته له حاول أن يثنيه عن ذلك الاعتكاف ؛ فجلس أمامه يثرثر وكأنه يتحدث مع نفسه قائلا:

.. يا أحمد الحياة لا تتوقف أبدا أمام أية أزمات أو مصائب ؛ الأمل هو سر الوجود الذي نعيش في رحابه.. فطالما اختطف الموت أعز الناس لكل الناس.. وكم من أماني وآمال انهارت.. وكما أن للفشل والعجز والشر بصمات ووجود ؛ فأيضا للنجاح والعطاء والحب وجود أكبر ؛ وصعوبة تحقيق الآمال لا ينفى حقيقة تواجدها.. و..

صمت لحظة وهو يتأمل وجه صديقه الحزين.. ثم قال ليهون عليه الأمر:

.. أنت نفسك شاءت الأقدار بأن تبليك بمرض أعجزك عن الحركة والاستمتاع بحياتك.. ولكن بالأمل وحده تحقق ما كنا نيأس من تحقيقه ؛ وها أنت شفيت وعدت سالما بعد أن ضاعت كل الأماني.

أما بخصوص منال فهي أيضا كانت فريسة لظروف لم تسع إليها.. لأن الكثيرين لا يريدون أن يصدقوا بأن العشوائيات ما هي إلا قنابل بشرية موقوتة.

فأنت لا ذنب لك فيما حدث.. ولا هي أيضا.

و.. عندما فشل مرة أخرى في أن يخرجه عن صمته ؛ آثر الانصراف وتركه لوحدته

وفى صباح اليوم التالي استطاع أحمد فهمي من خلال محاميه أن يحصل على تصريح لمقابلة منال لبعض الوقت.

كانت لهفته لرؤياها تسبق خطواته إليها وكاد لا يصدق نفسه بمجرد أن رآها أمامه.. وبادرها قائلا بصدق:

– اطمئني يا منال.. أنا بجانبك.. سوف أكلف أكبر وأكفأ المحامين للدفاع عنك.. لا تخشى شيئا سأساندك بكل ما أملك.. المحامون أبلغوني بأن القضاء قد يجعل من موقفك دفاعا عن النفس.. فأنا..

ولكنها قاطعته بهدوء قائلة بنبرة مسالمة :

– أرجوك يا أحمد لا تشغل نفسك بي.. فأنا لست طامعة في أي أمل بل ولا أرغب فيه.. كل ما كنت أتمناه قد تحقق الآن بوجودك أمامي لكي أخبرك بالحقيقة الوحيدة الصادقة في حياتي.. وهى أنني كذبت عليك من أجل الاحتفاظ بك.. فصدقني أنت لحظة الصدق الوحيدة في حياتي ؛ وأنت أول وآخر حب في وجودي؛ ومهما كان مصيري فيكفيني أنني أخبرتك بالحقيقة.. لعلك تسامحني.

وانسابت دموعها الصامتة في نفس اللحظة التي اغرورقت عيناه بغشاوة الدمع وكأنهما يتواصلان في ألم واحد.

وبصعوبة بالغة استطاع أن يهمس قائلا:

- سأنتظرك يا منال.. سأنتظرك لآخر العمر.. و..

انصرف بهدوء وصدى نبرة صوتها يجيش في أعماقه مرددا..

.. كذبت عليك فصدقني.

تمت...

أحمد فريد